13 me Année No. 623

Lundi - 11 - 6 - 1945

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة

دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

٨٠ في مصر والسودان
١٥٠ في سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات

يتفق عليها مع الإدارة

العــــدد ٦٢٣ « القاهرة فى يوم الإثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٤ — ١١ يونيو سنة ١٩٤٥ » الســنة الثالثة عشرة

قصة النمل الأبيض . . .

قالت نملة حمقاء لجماعة من النمل الأبيض أنقذها الفرار من أخفاف الفيَلة : لِمَ لا نعمل كما عمل (تيتو) وقد صنع الحلفاء بنا ما صنعوه به ، فجعلوا على جوانبنا أجنحة ، ووضعوا فى أفواهنا أسلحة ؟

قالت لها الجماعة : وماذا تريدين أن نعمل يا ذات الأجنحة الأمريكية والأسلحة الإنجليزية ؟

قالت : نهجم على هذه الجماعة البشرية وهى فى نشوة من وعود النصر ، وغفوة من عهود السلام ، فنخرجها من دار أميَّة ، أو ندفنها فى أنقاضها وهى حية ؟

وكان فى الجماعة نملة متصوفة من أتباع (مسِّنيون) تكفر بخطب الحجاج ، وتؤمن بطواسين الحلاج ، فنهضت تقول وفى عينها رقراق من الدمع : ولِمَ هذا البغى يا أختاه ! أنسيتِ والعهد قريب ، بطشة الجبارين بأرضنا العزيزة وأهلها يومئذ يتقلبون فى النعمة ويتبسطون على الأنس ؟ أنسيت والهول لا يزال يعصف بالقلوب ، تلك الجبال التى كانت تسير فتنفجر منها الحُمم ، والقلاع التى كانت تطير فتنهمر منها الصواعق ، ونحن نلوذ بأجواف الأرضين فلا يمنعنا ذلك دون أن نُسحق أو نحرق ؟ ولولا أن جاءنا النصر بطريق القرض ، لبقينا كاليهود مشردين فى الأرض؟ فهل يزكو بمن قاسى معرة الظلم أن يظلم ، وبمن كابد مذلة الحرمان أن يحرِم ؟ ثم أسمعك تذكرين الأجنحة المستعارة ، كأنك لا تذكرين الحكمة التى تقول : لا يزال النمل بخير ما لم تنبت له أجنحة ؛ فإذا نبتت أجنحته وأخذ يطير ، صادته العصافير . وهل فى أمة النمل أحد ينسى قول أبى العتاهية شاعر الأنس :

وإذا استوت للنمل أجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

فما كان جواب النملة الحمقاء إلا أن قالت فى ضحكة ساخرة ولهجة ماكرة : إنك لا تزالين يا صديقتى متأخرة ، ومن العجيب أنك تُنسبين إلى أمة متحضرة ودولة مستعمرة ! على أننا لا نجادلك بوصايا سان فرنسسكو ، ولا بنصائح وشنطون ولندرة وموسكو ؛ إنما نجادلك ببرهان العمل وسلطان الواقع . وما هى إلا دمدمة كعزيف الجن حتى غامت السماء بالنمل ، وسالت الأرض بالحشرات ، وأخذت هذه الطير الأبابيل ، ترمى الناس بحجارة من سجيل . ولم يغن عن العزل الأبرياء دعس النعال ، فى دفع هذه النمال ؛ فاستحرّ القتل ، وأثخنت الجراح ، وانتشر النهب ، وفشا الخراب ، وكاد النصر المؤقت يتم لهذه الحشرة الباغية لولا أن صاح من الجانب الغربى صائح يقول وفى يده بوقه وعلى رأسه بنوده : «يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده » ! فلم تبق نملة سمعت هذا الصوت من ذلك البوق ، إلا دخلت مذعورة فى شق من الشقوق ! وهيهات ألا يبعث الله من فى القبور ؛ إلا يوم ينفخ إسرافيل فى الصور !

وحينئذ قالت النملة المتصوفة الحكيمة وهى تُنغض رأسها استهزاء بالضعيف المغتر والذليل المعتز : أليس من خيبة الحكمة ألا ينفضَّ مشكل ، إلا بجن سليمان أو أسطول تشرشل ؟ !

ابن عبد الملك

عصرنا العجيب

للأستاذ عباس محمود العقاد

أعجب العصور فى تاريخ الإنسان كله هو عصرنا الذى نحن فيه ، ولا سيما هذا النصف الأول من القرن العشرين .

لك أن تلغى التاريخ كله مكتفياً بهذه السنين الأربعين أو الخمسين، لأنك واجد على اليقين مائة عبرة فى مكان كل عبرة تلغيها من تلك التواريخ الغابرة ، ولأنك على يقين واجدها أضعافاً مضاعفة ، فى القوة والكثرة والدلالة والوضوح .

لقد كانت السنون تنقضى فى تواريخ الماضين عشراً بعد عشر ، ومائة بعد مائة ، بل ألفاً بعد ألف فى بعض الأحايين ، قبل أن يظهر للعالم رجل خطير يضطلع بأعباء حادث خطير ، أو قبل أن تقام دولة وتسقط دولة ، وقبل أن تنجلى للأبصار والبصائر بواعث القيام ودواعى السقوط .

أما اليوم فقيام الدول وسقوطها من أنباء الصباح والمساء ، واختلاف العبر وتقلبات المقادير منذ كريات العمر الواحد الذى لم يتجاوز الثلاثين ، ومسرح القدر كريم بالمآسى والملهيات يعرضها خمساً خمساً أو عشراً عشراً فى وقت واحد ، فلا يفوتك فصل هنا إلا عوضته بفصول هناك ، ولا تذكر خيال يوربييد وارستفان وسفوكليس واسكايلاس وشكسبير إلا تلقيت حولك من نسج الواقع روايات مشهودة تفوق كل خيال .

موسولينى من بيت الحداد ، إلى أزقة جنيف ، إلى مظاهرات ميلان ، إلى دست الحكم فى روما القياصرة ، إلى الصولة على العالم كله وهو فى شرفات قصر البندقيـــة يقعقع بالسلاح فيرتجف الأقوياء والضعفاء ، ويحمدون الله على السلامة إذا انقضى ذلك الدعاء بغير النيران والدماء .

وموسولينى أيضاً من محب للسلام يلقى بنفســه أمام القطار ليعوق حركة الجنود التى تغزو طرابلس ، إلى مسعر للحرب لايقوم ولا يقعد فى حكمه إلا بثمانية ملايين من الحراب ! وألوف الألوف من صرعى البلاد والخراب !

ثم موسولينى هو هو بعينه هاربا يتسلل على أبواب التخوم لايزال يطمع فى الحياة بما بقى له من سبائك الذهب وسلوى الغرام ، ثم يفوته هذا المطمع الذليل فإذا هو معلق من قدميه لأنظار السابلة الشامتين ، لاتسلم جثته بعد الموت من رصاصة انتقام وبصقة ازدراء .

وهتلر سيد الألمان وصاحب الأمر المطاع فى القارة التى تطلب الطاعة من جميع القارات ...

من طفل مدلل ، إلى جندى مخذول ، إلى شريد على أبواب الصدقة فى العاصمة النمسوية ، إلى حلس قهوات فى ميونخ عاصمة البافاريين، إلى وارث العرش العريق فى برلين ، وسيد الأمة المختارة كما قال بين أمم العالمين . كلمة فإذا العالم يتساءل ماذا يريد ؟ وهمسة فإذا هى أجهر فى الآذان من البروق والرعود، وحركة فإذا الأكف على الصـدور ، وغضبة فإذا المغرب والمشرق يتحدثان بالشرور وعظائم الأمور .

عاش ليفتح الأرض بما رحبت ، ومات لتضن عليـه الأرض بقبر من ألوف القبور .

وفى روسيا ، أين دولة القياصرة ومن كان منهم يدعى بالأب الصغير إذا دعى الله بالأب الكبير ؟

وفى القسطنطينية أين دولة الخواقين ومن كان منهم يدعى بظل الله وخليفة رسول الله ؟

وفى أمة الفرس أين عرش الأكاسرة ؟ وفى أمم الصين أين عرش أبناء السماء ؟

لا تسل عن هؤلاء وسل عن لينين وكال ورضا وشيان ، وكلهم بين طالب منفى وجندى ناشىء وثائر مغضوب عليه .

ودع السياسة والحرب وانظر إلى النسك والزهادة تر فى الهند ناسكا حاسر الرأس حافى القدم ينازل الدولة التى صمدت للنزال ، فى ميادين السياسة وميادين القتال .

ودع النسك والزهادة وانظر إلى عواطف القلوب وخلجات النفوس تر العـاهل المظيم الذى يتخلى عن ملكه ولا يتخلى عن زوجه وشريكة فؤاده وروحه .

ودع كل هذا وانظر إلى الصناعة والاختراع تر الإبداع الذى ينسيك كل إبداع : هاتف فى أقصى المغرب تسمعه فى لمحة عين وأنت على عشرات الألوف من الأميال ، وطيارة تسابق الشمس فتذرع الشرق والغرب فيما بين ليلة ونهار .

مامن شىء فى مصارع الدول ومقادير الشعوب ، ومامن شىء

فى مظاهر القوة بين مظهر خادع ومظهر صحيح ، وما من شىء فى أفانين الدعوة التى تقال أو لا تقال ، وما من شىء فى أساليب الغلب بالسياسة أو بالسلاح ، وما من شىء فى موازين التقدير ومقاييس النجاح والإخفاق ، ومامن عبرة فى حياة الأمم أو الأفراد خلت منها هذه السنون الخمسون ، أو نقص نصيبها منها عن نصيب الدهور متجمعات متلاحقات .

أفنحن سعداء بهذه الآونة العجيبة أم أشقياء ؟

إن كانت السعادة وفرة الحياة وثروة التجربة فنحن سعداء ، وإن كانت السعادة خلو البال من العبر والأحداث فنحن لا نغبط السعيد الخالى ، لأن الخلو لم يكن قط بالنعيم الذى يعمر النفس ويحمده الأحياء .

فالعمر فى هذا العصر الحافل لا شك أعمار ، والحياة بين هذه العوالم لا شك حيوات ، وما نخال أحداً يستبدل بأيامه فى هذا العصر أياماً فى العصور الأخريات ولديه سبب مفهوم .

قال قائل وقد كنت أذكر عجائب عصرنا : نعم ويخيل إلى أناس مع هذا أن العصر عصر باهت لا عجب فيه ، وأن العجائب حق العجائب قد ذهبت مع ذاهب العصور ، لأنهم يعجبون على البعد ولا يعجبون على القرب ، ولا يعلمون أنهم متعجبون إلا إذا قرأوا أنهم متعجبون !

وسأل سائل : لكن أليس بعجيب من هذا العصر أنه لم يبدع ملحمة من الشعر كملاحم الأقدمين ، وما كانت طروادة وميادينها وأبطالها إلا حادثة من حوادث الأقسام فى جوانب الحوادث التى مرت بأهل هذا الزمان ؟

قلت حذار يا أخانا أن تخطىء هذه الخطأة التى ينزلق إليها نقاد الظواهر مغمضين ! . . لو أن أدباء الملاحم الغابرة عاشوا فى عصرنا هذا لما كان شأنهم غير شأن الأدباء الذين يعيشون فيه . لأن الاختلاف إنما يكون فى النظر إلى الوقائع لا فى ضخامة الوقائع ونصيبها من السعة والضجيج . وحذار يا صاح من كل رأى يسول لك أن تجرد الخلائق الآدمية فى بعض الأجيال من سليقتهم التى طبعوا عليها فى غير ذلك الجيل ؛ فإن السليقة لا تتبدل إلا كما يتبدل الناس بين عصر اليقظة وعصر الغفلة والجمود ، فإذا لم يكن العصر عصر غفلة أو جمود فسليقة النفس الآدمية واحدة من أقدم العصور إلى أحدث العصور ، ولا سيما فى مسائل الحس والتعبير .

أما أن الأقدمين نظموا الملاحم فيما هو أهون من أعاجيب اليوم فإنما نظموها لأنهم كانوا يتلقون الحوادث بدهشة الخيال ، ولا يستعظمونها مع هذا حتى يضفى عليها القدم ثوبا من الغموض والتهويل .

ولا كذلك يصنع المحدثون حين يتلقون الحوادث الكبر فى عهدهم المشهود أو فيما غاب عنهم من العهود ، لأن الحادثة الكبيرة تقع بينهم فإذا هى حيز فى الصحيفة ، وحديث فى المذياع ، وصورة على اللوحة البيضاء ، وموضع للتحليل فى كتاب ، وباب للترجمة وسرد السير فى سجل من سجلات التاريخ ، ودرس من دروس الصناعة فى المعامل أو معاهد التدريب . فقد شبع منها الحس واستنفدها اللسان ، والحس إذا شبع من شىء لم يرجع به إلى دهشة الخيال ؛ واللسان إذا استنفد القول تحليلا وتعليلا لم يبق منه بقية للغموض والتهويل .

ترى لو كان « هوميروس » قد شهد حصان طروادة صورة متحركة ، وقرأ أبطال الإغريق كتباً مفصلة ، وسمع المساجلات بينهم حديثاً مذاعاً أو أصداء على اللوحة البيضاء ، وعلم أنه لا أرباب هناك ولا أنصاف أرباب ، وأنه لا نبتون فى البحر ولا زيوس على متن السحاب — أكان ينظم الإلياذة كما نظمها أو كان الناس يسمعونها منه كما سمعوها ؟

إن الخيال يعمل حين يلجئه الخفاء إلى العمل ، وإن المرء ليضفى حلل الخيال على الغانية فى البرج المحجوب ، ولكنه حين يراها إلى جانبه فى الترام ، وينظر إليها وهى تأكل الطعام ، ويستمع إليها وهى تتكلم فتحسن الكلام أو لا تحسن الكلام ، يفكر فيها كل تفكير يخطر على البال إلا أن يلحقها بأجواء الخيال .

ولسنا نعنى بهذا أن الحوادث فى عصرنا لم تبق بقية لخيال الشاعر وبديهة الفنان ، ولكننا نعنى أن النظرتين تختلفان وأن التخيل فى عصرنا أصعب من التخيل فى تلك العصور ، فما كان يسيرا على هوميروس فى أيام طروادة لن يتيسر له هذا اليسر فى عصر دنكرك وستالنجراد .

نحن نشبع من الحوادث حساً وفهماً فلا نعجب لها كما كانوا يعجبون وهم يتلقونها بالدهشة والخيال ، وعلى هذا قد تمضى السنون الطوال قبل أن نحس ما نحن فيه كما ينبغى أن نحسه ، وقبل أن نفهمه كما ينبغى أن نفهمه بمعزل عن الأهواء .

عباس محمود العقاد

عرب فرنســـا

للأستاذ عمر الدسوقى

عطبت سيارتنا ، ونحن نُصعِّد فى الجبل صوب قرية من قرى لبنان ، وكان عطبها إزاء كوخ مشرف على الطريق ، أطلت منه عجوز نالت منها السنون حتى تركتها أثراً متهدماً لإنسان : درداء، شمطاء ، عجفاء ، معروقة اليدين ، مخددة الوجه ، محدودبة الظهر . وكأنما راعها أن تقف سيارة نخمة بباب كوخها المتهدم المتواضع الذى يحاكيها قدما ، ويجانسها ضعفاً ، ويماثلها قماءة ، فأخذت تجيل فينا بصراً لا يزال حديداً ، لم يبل كما بلى جسمها ، ولم يرث كما رثت مُنَّتُها ، يتطلع إلينا فى لهفة وعجب ، كأننا من عالم آخر لم يره من قبل .

فقال صاحبي يداعبها : صُبِّحت بالخير ياخالة . من أى العرب أنت ؟ ، فأجابت بلهجة جبلية قحة ، وبصوت خشن ، استعار غلظته من هذه الصخور الجاسية التى تحيط بها : « إنى من عرب فرنسا » . فقال صاحبي دهشاً : « وى ! وهل لفرنسا عرب ؟ » فتلعثمت العجوز ، وحارت ثم أجابت : « إننا لا نعرف غيرها حاكما على هذه الديار . قد بسطت ألويتها على السهول والحزون ، وتغلغلت لغتها فى القرى والدساكر ، والبيوت والمتاجر ، ينطق بها الصغير والكبير ، ويزهى بالتشدق بها الحقير والأمير ؛ قد طبعت بلادنا بطابعها ، وتدخلت فى الهين والجليل وملكت أزمة المال والرجال . وإنى فى وكرى هذا لأحس بأسها وسطوتها فهل حدت عن الجادة إذا قلت : إنى من عرب فرنسا ؟

ولم يطل صاحبي معها الحديث لنستشف خبيئة نفسها، ونعرف أمتهكمة هى أم جادة ، وفرحة بهذا الوضع أم ترحة ؟ فقد جأرت السيارة مستأنفة السير فهرولنا إليها مشيرين إلى العجوز مودعين . وما إن استقر بنا المقام فى السيارة حتى التفت إلى صاحبي وقال : « ما رأيك فيما سمعت ؟ » فقلت : « نكراً والله ، إن كانت هذه العجوز جادة تقرر حقيقة قد سلمت بها ، واعتقدتها من قلبها فذلك برهان لا مرية فيه على أن فرنسا نجحت فى هذه الديار نجاحاً نفذ إلى ألباب العجائز فى الجبال . أما إن كانت متهكمة فهذا دليل اليقظة الروحية ، والإيمان الكامن فى هذه القرى النائية عن العمران ، وحجة على أن هذا الجبل الأشم أشد بأساً وأقوى مراساً من أن يلين لزبرج الحضارة المموهة ، وأساليب الاستعمار الخادعة .

فقال : لعلها تقرر الحقيقة من وجهة نظر فرنسا ، فإنها تعمل جادة على أن تسلخ هذه الشعوب من مقومات شخصيتها ، وتجردها من كل ما يذكرها بمجد تليد ، أو يحفزها لعمل مجيد ؛ وتلهيها عن مثلها العليا بخلق أسباب التناحر بين أفرادها، وتطفىء جذوة الإيمان بالحرية المستقر بالفطرة فى كل نفس بشرية بما تقدم من نفايات حضارتها ومادية مدنيتها .

ألا ترى كيف فرضت لغتها على المدارس بشتى درجاتها يلقنها الطفل قبل أن يلقن لغة بلاده ، ويتعلم بها كيف يعبر ويفكر ويحسب ! ؟ أليس من الخزى أن يُعَلَّم تاريخ هذه البلاد العربية وجغرافيتها باللغة الفرنسية ؟ ! إن اللغة رمز القومية ، وعنوان الشخصية ؛ فإذا لهج إنسان بلغة غير لغته فى حديثه المعتاد ومع أهل بيته وجنسه ، فهل ثمت ما يفصح عن قوميته ويدل على شخصيته ؟ إن الوجوه تتشابه ، والعقول تتكافأ ، ولكن اللغة وحدها هى التى تفرق بين أمة وأمة . ولأمر ما يعتز الانجليزى بلغته ، حتى وهو غريب ، ويفرضها على الناس فرضاً فى الفنادق والمتاجر فى أوربا نفسها ، ولا يفكر فى تعلم لغة البلاد التى يستوطنها

إن لغة أى بلد تحمل فى طياتها تاريخها ، وحضارتها ، وعصارة أفكار أجيالها السالفة ، وآدابها ، وأمثالها ؛ وتذكر دائماً بماضى تلك الأمة ، وهى رمز الشعور المشترك بين أفرادها؛ فإذا عافها أبناؤها وأنفوا من التكلم بها ، وفرض عليهم الدخيل لغته ، فقد اقتطعهم من كل مايذكرهم بكيانهم الخاص وبدد ما بينهم من شعور بالقومية . وهذا ما عملته فرنسا فى الجزائر ، وشمال أفريقية ولبنان وسوريا .

أولا ترى كيف أضرمت فرنسا فى هذا البلد نار الطائفية الدينية ، بل فرقت بين أبناء الدين الواحد ، وجعلتهم مذاهب وشيعاً ، وزادت هوة الخلاف بينهم ، وجذبت إليها بعض رؤسائهم

وأغدقت عليهم النعم ، ومدت لهم فى أسباب المودّة ، وأضفت عليهم الألقاب حتى يمعنوا فى خلافهم ، وخلقت لهم المناصب ، ووزعتها طبقاً للطائفية ؟ فكيف يرضى هؤلاء ، وقد نعموا بالرياسة أن يخضع بعضهم لبعض ؟ أو لم تسمع بالرب «سليمان» ؟

قلت : كلا ! ، قال : إنه شخص يدعى الألوهية بجبال العلويين ؛ ويزعم أن روح الله حلت به ، وقد اعترفت فرنسا بألوهيته، وحين ينزل بيروت تضيفه الحكومة الفرنسية فى أرقى الفنادق ، وتحيطه بحرسها وجندها ، وتقله فى أفخم سياراتها ، وتوهمه أنه إله حقيق لا مرية فيه .

ألا تتصور الرب « سليمان » هذا يعود إلى موطنه فى جبال العلويين ، يشيد بفرنسا وعظمتها ويسبح بحمدها وقد بشم من الشبع على موائد الغاصبين ، وانتفخ عظمة كاذبة من ثناء الخادعين ، واكتظت حقيبته بالمال والهدايا ثمناً لضميره الذى بيع للمستعمرين ؟

إن فرنسا تتدخل فى الصغيرة والكبيرة من أمور هذه البلاد ، فلا تدع لأبنائها مجالاً للتفكير والتدبير ، والموازنة والتقدير ، فهى تريد عقولهم مشلولة أو مخبولة ، أوقل إنها تريد أن تفنيهم معنويا ، وتجعلهم بعد جيل أو جيلين لا يحسون ولا يدركون مالهم من حقوق وما عليهم من واجبات ، يُدبَّر أمرهم وهم فى غفلة ساهون ويُقضى الأمر حين تغيب تيمٌ ولا يُستأذنون وهم شهود وهكذا شأن الجزائر اليوم ، فلا حول ولا قوة إلا بالله !

فهل بعد هذا تعجب حين تقول هذه العجوز : « إنها من عرب فرنسا » ، إنها من عرب ملك لفرنسا تفعل بهم ما تشاء أو أنهم على وشك أن يكونوا كذلك ، تسومهم الخسف وسوء العذاب ، وتسلبهم حرياتهم ، وتفرقهم أباديد ، وتقتل فيهم الحياء والإباء ، والمروءة والوفاء .

فقلت : وكيف يرضى أهل هذه الديار بهذا ؛ وعهدى بأهل الشام أولى نجدة وحمية ، وغيرة متقدة وحماسة ملتهبة ، ووطنية متأججة . لهم تاريخ حافل بصفحات المجد والفخار ، وفيهم حيوية متدفقة وذكاء فطرى عظيم ، وحرارة إيمان شديدة . ثم هم أحفاد الغسانيين ، والعرب الفاتحين ، وأهل جبال فيهم مراس وبأس ، وصبر واحتمال ، ونزوع إلى المخاطرة والمغامرة ، لا يبالون بالشدائد والأهوال فى سبيل أهدافهم ، فكيف رضوا بنير الاستعمار ؟

فقال صاحبى : إن الاستعمار دنس ، يلوث النفوس الطاهرة ، ويوهن العزم القوى ، ويفتن القلب الأبى ، ويضل العقل الذكى . إنه امتهان للانسان وكرامته ، وانحطاط به إلى مرتبة الرق . وأوربا قد حاربت الرق الفردى ، ولكنها استباحت الرق الجمعى . فخرجت سوريا من الحرب الماضية منهوكة القوى من الجوع والجهل والضعف ، وطمعت فيها فرنسا ، فأبى فيصل وأتباعه على ما بهم من وهن أن يكونوا طعمة هينة ، ثم كانت موقعة (ميسلون) وبسطت فرنسا نفوذها على الشام ، وقطعتها إرباً اربا ، فشرق الأردن ، وفلسطين ، وسوريا ، ولبنان ، وجبال العلويين ، وجبال الدروز ، والاسكندرونة ، وإنطاكية . وجعل لكل جزء رئيس ، وصار لكل رئيس أذناب وأتباع ، يطمعون فى المناصب والجاه الكاذب . وبذلك ذهبت قوة بلاد الشام فى هذه التفرقة ، ومكّن لفرنسا أن تعمل ما تشاء هى وإنجلترا . فلو كان الشمل جميعاً ، والقلوب متحدة ، والقوى متضافرة ، والموارد متجمعة ، لكان الشأن غير ما ترى اليوم ، ولكن قاتل الله الرق والاستعمار !

كان هذا الحديث قبل أن تنهار فرنسا ، وتبتلى بالمحن الشداد ، وتسقى كأس الذل حتى الثمالة ، وتنتهك حرماتها .

وقلنا لعله درس يعلمها كيف يتألم سليب الحرية ، وكيف يتململ الذبيح تحت مدية الجزار ، وكيف يتأوه المظلوم والمحروم ، ويصعّد الزفرات والحسرات ، وقد سدت دونه السبل ، وأشرعت فوق رأسه حرب الغاصبين .

وشاء الله أن تعتق فرنسا على يد الحلفاء ، ولم تكد تتنسم نسمة واحدة من الحرية حتى أخذت تتطلع إلى أن تسرق غيرها ، وتبسط سلطانها على سواها من الأمم التى وَفَتْ لها وهى مثخنة الجراح فلم يطعنها من الخلف ؛ مع أن فرنسا لا تزال بعد دامية الجراح ، مفككة الأوصال ، تهددها المجاعة بالموت .

كنا نظن ، وقد ذاقت فرنسا مرارة الذل والاستعباد ، أنها ستقدر نزعات الحرية عند غيرها من الشعوب ، وكنا نظن ، وقد اعترفت الدول الكبرى باستقلال سوريا ولبنان أن لم يعد ثمة مجال للمساومة فى الرق بأى صورة كانت : انتداباً ، أو استغلالا ، أو امتيازاً .

وكنا نظن ، وأوربا بأسرها كانت تقاتل حتى أمس القريب فى سبيل الحرية ، والمبادىء الديموقراطية ، أننا مقبلون على عهد جديد ، يكرم فيه الإنسان أينما كان ، وتمحى فيه السيادات ، ويعيش الناس سواسية متحابين بعد هذه المحنة القاسية ، والحرب الشنعاء . وإلا ففيم كانت كل هذه الدماء المراقة ، والدعاوى العريضة ، والبلاد المخربة ، والإنسانية المنكوبة ؟ !

يا عجباً ! تلجأ فرنسا التى كانت تئن بالأمس تحت سياط الجلاد ، إلى تلك السياط التى تسلطها على شعوب تأنف فى شمم وكبرياء أن تدين بعد اليوم لأمة ما بالطاعة والعبودية . أتضرب دمشق بالمدافع والطائرات الفرنسية ، لأن أهلها يرفضون وصاية وانتداباً فرض عليهم قسراً ، ولأنهم يرون أنفسهم ومن ورائهم ماضيهم وبين أيديهم حاضرهم ، أكثر رشداً ، وأقوم خلقاً ، وأوفى عهداً ، وأشد جلداً من هذه الأمم التى تفرض نفسها على غيرها ، وتسم غيرها بالقصور ، وهى فى أمس الحاجة إلى مرشد حكيم يجنبها مواطن الزلل ، ويعرفها أن طرق الاستعمار القديمة البالية لا تستسيغها الأمم بعد اليوم ؟ !

كل البلاد العربيــة فى موقف مشابه لسوريا ولبنان ، وهما تعبران اليوم عما يجيش فى كل نفس عربية ، وتضربان بجهادهما الرائع وضحاياهما الخالدة البرهان الناصع على حيوية هذه الشعوب العربية ، وما تستطيع أن تفعله كل منها حين تقف للجهاد ، وتزأر زئير الحرية . وتضافر الأمم العربية معهما وشدها أزرهما المحك الذى تبلى به جامعة الأمم العربية ، فإما عزة وسؤدد يبقيان للأبد ، وإما خزى وعار وذل واستعباد لكل هذه الشعوب لا قدر الله .
فهل آن لنا أن نعيش أحراراً من نير أوربا ؟ !

عمر الدسوقى

فى إرشـــاد الأريب

إلى معرفة الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى

— ٤ —

* فى ج ٨ ص ١٨١ وهـذا شىء (يعنى تفسير كتاب سيبويه لأبى سعيد السيرافى) ما تم للمبرِّد ولا للزجاج ولا لابن السراج ولا لابن دَرَسْتَوَيْه مع سعة علمهم وقبض بنانهم .

وجاء فى الشرح : وقبض بنانهم هو من قبض على الشىء بيده أمسكه وضم عليه أصابعه وهو إشارة إلى تمكنهم .

قلت : أغلب الظن أنه (فيض بيانهم) والمبرد هو بفتح الراء كما ضبط ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) وبيّن ابن عبد ربه فى (العقد) ودل عليه خبران فى (تاريخ بغداد) للخطيب و (شرح المقامات) للشريشى . وكنت قد ذكرت كل ذلك فى « الرسالة الغراء » . ولما اطلع العلامة ابراهيم مصطفى الأستاذ فى جامعة فاروق الأول على النصوص التى أوردتها نشر كلمة فى الرسالة (٢٠٥) ذكر فيها أن الشيخين اللغويين الشنقيطى والمرصفى كانا يذهبان إلى كسر الراء ثم قال :

« ولعمرى لو أنهما شهدا وهدى إليهما ما قدم فى الرسالة من النصوص لما رأيا إلا الفتح ... فما كان لهؤلاء العلماء من التشدد فى الحق إلا ريثما تنكشف لهم الحجة فى غير ما بأيديهم ، فهم أتباع الحق أبداً ... »

وهذه طرائف جديدة تنصر الفتح :

روى ابن حجة فى (خزانة الأدب) لشيخ الشيوخ عبد العزيز الأنصارى الحموى :

ويلاه من نوى الشرد وآه من شمـلى البدد
يا (كامل) الحسن ليس يطفى ناري سوى ريقك (المبرد)

وجاء فى الأساس : فلان يفصّل كلامه تفصيل الفريد ، وهو الدر الذى يَفصِل بين الذهب فى القلادة المفصّلة ، فالدر فيها فريد والذهب مُفرَّد ، والواحدة فريدة ، وقيل : الفريد الشذر ، ويقال لبائعه : الفرّاد . وتقول : كم فى تفاصيل البرد ، من تفصيل فريد ومفرَّد .

ومن عرف أسلوب الزمخشرى فى سجعات الأساس أيقن أنه لم يقصد إلا الفتح . ومثل تلك السجعة هذه المقطوعة لسلمان ابن عبد الله الحلوانى النهروانى :

تقول بُنيّتى : أبتى ، تقنع ولا تطمع إلى الأطماع تمتد[1]
ورض باليأس نفسك فهو أحرى وأزين فى الورى ، وعليك أعود
فلو كنت الخليل وسيبويه أو الفرّاء أو كنت المبرد
لما ساويت فى حى رغيفاً ولا تُبتاع بالماء المبرد

وقال شاعر لا أذكر الآن اسمه :

ومليح إذا النحاة رأوه فضلوه على (بديع الزمان)
برضاب عن (المبرد) يروى ونهود تروى عن (الرمانى[2])

وقال الثعالبى فى (خاص الخاص) :

« أبو العباس المبرد قال : اجتزت يوماً بسذاب الوراق وهو قاعد على باب داره ، فقام إلىّ ، ولاطفنى ، وعرض علىّ القرى . فقلت : ما عندك ؟ قال : عندى أنت ، وعليه أنا . يعنى أن عنده لحمَ السكباج المبرد ، وعليه السذاب المقطع[3] . فاستظرفت هذه النادرة وزلت عنده »

وما كان أمثال الجاحظ والأعمش والمبرد والأخفش يكرهون ألقاباً شهروا بها .

روى ياقوت فى أخبار على بن سليمان (الأخفش الصغير) : حدث أبو عبيد الله : حضرت يوماً أبا الحسن الأخفش ودفع كتاباً إلى بعض من كان فى مجلسه ليكتب عليه اسمه ، فقال له أبو الحسن : خَفّشْ ، خفش . يريد اكتب الأخفش . ثم قال أنشدنا أبو العباس المبرد :

لا تكرهن لقباً شهرت به فلرب محظوظ من اللقب

(١) (أبتى) جمع بين التاء والياء — بين العوض والمعوض منه — ضرورة ، وقد ورد فى الشعر مثل ذلك

(٢) أبو الحسن على بن عيسى الرمانى النحوى المتكلم أحد الأئمة المشاهير جمع بين علم الكلام والعربية . أخذ الأدب عن أبى بكر ابن دريد وأبى بكر بن السراج « ابن خلكان » .

(٣) السكباج بالكسر معرب عن سركه باجه ، وهو لحم يطبخ بخل ، ويقال : سكبج الرجل إذا أعد سكباجا ، والسذاب بقل له خواص وطبائع معروفة فى كتب الطب (التاج) وفى (ألفاظ الفارسية المعربة) : نبات يقارب شجر الرمان ورقه كالصعتر . وزهره أصفر .

وبعد فالفضل كل الفضل في تحقيق ذلك الإسم وضبطه إنما هو لرسالة العرب والعلم والفضل والأدب ، وللعلامة الأستاذ ابراهيم مصطفى ، وللأديب البارع الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف .

* في ج ١٠ ص ٢١٢

إن هشاما جده هشام مقابل مدابر هضام

قلت : كسرت الباء في مقابل ومدابر وهي فيهما بالفتح . ورجل مقابل مدابر كريم الطرفين من قبل أبيه وأمه كما في اللسان والتاج وهو من المجاز كما ذكر الأساس . والبيتان من أرجوزة لحفص الأموي في الخليفة هشام بن عبد الملك .

* في ج ١١ ص ٧٦

وقبلك داوى الطبيب المريضْ فعاش المريض ومات الطبيبْ
فكـنْ مستعداً لدار الفناء فإن الذي هو آت قريب

قلت : سكنت ضاد المريض وفتحها واجب ، والقبض هنا كثير ، وليس البيت مصرّعاً ولا مقفّى حتى يجوز التسكين . وعندي أن القائل وهو الخليل بن أحمد لم يستعمل إلا الضرب الصحيح وإن جاء قصره وجاز .

وقوله (فكن مستعداً لدار الفناء) هو (فكن مستعداً لداء الفناء) أي للموت كما روى الأنباري في (نزهة الألباء في طبقات الأدباء) ومعلوم أن تلك الدار التي يستعد لها المؤمنون هي دار البقاء لا دار الفناء ...

* في ج ٩ ص ١٧٩

يلذ له طعم الكماة كأنما
جرى الشنْبُ المعسول فوق العواسل (١)

قلت : يلذ له طعن الكماة لا طعمهم ... والبيت للحسن بن محمد العسقلاني في صارم الدولة بن معروف .

* في ج ١١ ص ٢٠٤ وبهم قرونتي أن أرفع عقيرتي ...

قلت : جاءت قرونتي بضم القاف وهي بالفتح كما ضبط القاموس المحيط ... وضُبط في المخصص ، وقد جاء فيه : سامحت قَرونه وقَرونته وهي النفس ، وهي القَرينة وهي القَرن ، وحكى ابن الأعرابي : أسمحت قَرونه أي لانت وانقادت .

(١) ثغر أشنب ، وفيه شنب وهو رقته وصفاؤه وبرده (الأساس) العواسل : الرماح ، عسل الرمح : اشتد اهتزازه فهو عاسل وعسال وعسول : مضطرب لدن .

* في ج ١٤ ص ١٦٠ وكان الشيخ عبد القاهر الجرجاني (صاحب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) قد قرأ عليه (يعني على ابن عبد العزيز الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه) واغترف من بحره ، وكان إذا ذكره في كتبه تبخبخ به ، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه .

قلت : وردت (بخبخ) ولم تجيء (تبخبخ) واليقين أنها تبجح به . في التاج : تبجح به . فخر ، قال اللحياني . فلان يتبجح ويتمجح أي يفتخر ويباهي بشيء ما ، وقيل : يتعاظم .

* في ج ٣ ص ٨١ وله (للصابي) إلى الصاحب :

لما وضعت صحيفتي في بطن كف رسولها
قبلتها لتمسها يمناك عند وصولها
حتى ترى في وجهك الـ ميمون غاية سؤلها

قلت : سولها بالتخفيف ضرورة هنا .

* في ج ٧ ص ١٠٦

شرج لقوم يهتدون بهـا وفضائل تنمى ولا تجرى

قلت : (تنمى) بكسر الميم ، و (تجرى) هي تحرى بالحاء ، وهي كرمى يرمي . في النهاية : في حديث وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) فما زال جسمه يحرى أي ينقص ، يقال : حرى الشيء يحرى إذا نقص ، ومنه حديث الصديق : فما زال جسمه يحرى بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى لحق به .

* في ج ٨ ص ١٣٥

ومثالث العيدان يُسـ ـعد جسها بم وزير

قلت : بم بالفتح والبم الغليظ من أوتار العود ، والزير الدقيق منها .

* في ج ٨ ص ١٤١ وكانوا يفدون على محمد بن يحيى بن أبان فيضربون خيامهم في باغ سلم بن عود .

وجاء في الشرح : باغ اسم مكان فيه دار ابن عود

قلت : الباغ البستان بالفارسية ، وهو في شعر أبي الفتح علي ابن موسى البستي ، رواه الثعالبي في مقدمة (كتابه فقه اللغة) :

لا تنكرن إذا أهديت نحوك من علومك الغر أو آدابك — النتفا
فقيم الباغ قد يهدى لمالكه برسم خدمته من باغه التحفا

حول انهيار فرنسا

لأستاذ عربي كبير

حينما انهارت فرنسا أحدث انهيارها المفاجئ هزة أرضية عالية ، دهش لها من دهش ، وابتهج بها من ابتهج ، وبكى منها من بكى .. وكان القليل من كتاب العرب يومئذ وهم الذين اكتووا طويلا بنار الاستعمار الفرنسي أن يتنفسوا الصعداء بزوال هذا الكابوس ، ولكنهم انقادوا للنوازع الانسانية والأدبية فيهم فكتبوا يرثون فرنسا ويرثون لها ويعطفون عليها ، إلا هذا الكاتب المفكر الكبير فانه عارض هذه النزعة وعالج الموضوع على ضوء الحقائق المجردة والوقائع الثابتة . ولم تتهيأ لنا الفرصة يومئذ لنشر هذه الآراء القيمة ، فننشرها اليوم بمناسبة المأساة السورية فإنها جمرة متقدة من تلك النار ، وأثر سيء من آثار ذلك الانهيار .

... أخذ عدد غير قليل من الكتاب العرب يتبارون في نشر المقالات ونظم الأشعار ، حول هذا الانهيار ، وكان معظم ما كتب في هذا الموضوع (عاطفياً) بكل معنى الكلمة . كان أكثرها مراثي تندب حظ فرنسا ، وتظهر أسفاً شديداً ، وحزناً عميقاً على الكارثة التي حلت بها ؛ وكان بعضها يغالي في الرثاء ، إلى أن يبلغ به درجة البكاء ...

غير أن هذه المراثي قوبلت بمعارضة شديدة ، فقد حمل عليها بعض الكتاب حملات عنيفة وقالوا : كيف يجوز لكاتب عربي أن يبكي على فرنسا وينسى ما فعلته بالقسم الأعظم من البلاد العربية ؟ كيف يجوز لفكر عربي أن يرثي النكبة التي حلت بفرنسا وهو يعلم أنها كانت من أهم العوامل التي أنزلت أكبر النكبات بالأمة العربية وبخاصة بعد الحرب العالمية ؟

احتدم الجدال بين الفريقين ؛ وحاول كل فريق أن يبرر حسن عواطفه بمقالات حارة ، أودع فيها كل ما أوتي من قوة البلاغة والبيان ...

أنا من الذين يعتقدون أن الكتابات العاطفية تعبر عن نفسية كتابها الشخصية وخوالجهم الذاتية ، فلا تتحمل المناقشة مناقشة علمية ... غير أن أصحاب المراثي لم يكتفوا بإظهار عواطفهم وشيئاً ، بل أخذوا يدافعون عنها ويدعون إليها ، وحاولوا أن يدعموها ببعض الآراء والنظريات السياسية والاجتماعية ..

فإذا جازلنا أن نسكت تجاه « العواطف الشخصية » ، فلا يجوز لنا أن نلتزم مثل هذا السكوت تجاه الآراء والنظريات التي صارت تنشر لتبرير تلك العواطف ...

لقد قال البعض « يجب أن نميز بين فرنسا الأدبية المتمدنة وفرنسا السياسية المستعمرة » ، كما قال آخرون : «يجب علينا أن نفرق بين عمل الساسة وعمل الأمة كلها ، فلا يجوز أن نعتبر الشعب الفرنسي مسؤولا عن أعمال حكامه ..

فلننعم النظر في الآراء التي تتضمنها مثل هذه الأقوال .. ولنفكر جيداً : هل يمكن التمييز بين فرنسا الأدبية المتمدنة وفرنسا السياسية المستعمرة تمييزاً حقيقياً ؟

أنا لا أقول بذلك أبداً ... لأن الأدب الفرنسي نفسه لم يلتزم الحياد تجاه السياسة الفرنسية بوجه عام وحيال السياسة الاستعمارية بوجه خاص . بل بعكس ذلك انبرى لخدمة تلك السياسة

---

* في ج ١٠ ص ١٣٩

أتطلب الفصاحة من الغم ، والصباحة من المغم ؟

قلت : من الأغم . والغمم كما جاء في الصحاح أن يسيل الشعر حتى تضيق الجبهة أو القفا ، ورجل أغم ، وجبهة غماء ، قال هدبة بن الخشرم :

فلا تنكحي إن فرق الدهر بيننا أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

والأنزع الذي ينحسر شعر مقدم رأسه مما فوق الجبين كما في النهاية . وفي اللسان : وامرأة نزعاء ، وقيل : لا يقال نزعاء ، ولكن يقال زعراء . وفي صفة علي (رضي الله عنه) البطين الأنزع[1] . والعرب تحب النزع وتتيمن بالأنزع ، وتذم الغمم ، وتتشاءم بالأغم ، وتزعم أن الأغم القفا والجبين لا يكون إلا لئيما ، ومنه قول هدبة : البيت . وفي (الكامل) : الغمم كثرة شعر الوجه والقفا ، وأورد البيت ، ثم قال : والعرب تكره الغمم .

(١) وقيل معناه الأنزع من الشرك المملوء البطن من العلم والايمان (النهاية) .

بكل الوسائل الممكنة .وقد كتب الأدباءعدداً لا يحصى من المقالات والخطب والأشعار والقصص والروايات التي تمجد الاستعمار وتزينه في النفوس ، وتحث على الاستعمار وتحببه إلى القلوب . .

إن دلائل ذلك تظهر للعيان من خلال جلسات الأكاديمية الفرنسية أيضاً . لأن هذه الندوة الأدبية العليا قد حرصت كل الحرص على أن تختار بعض أعضائها من بين رجال السياسة والجيش، كما اختارتهم أحياناً من بين صناديد الاستعمار . وهؤلاء لم يتجردوا من نزعاتهم السياسية والاستعمارية عند دخولهم قاعة اجتماع تلك الندوة حتى إنهم لم يترددوا أحياناً في اتخاذ تلك القاعة منبراً لإسماع آرائهم الاستعمارية في خطب أدبية رائعة .

ولعل أقرب وأوضح الأدلة على ذلك كان انتخاب المارشال (ليوتى) عضواً في الأكاديمية المذكورة . ومن المعلوم أن هذا المارشال يعتبر من أكبر رجال الاستعمار ، فقد لقبه الفرنسيون بلقب « الإفريقي » — تقليدا لما فعله الرومان في القرون الأولى ، عندما خلعوا مثل هذا اللقب على (اسجسيون) بعد تمكنه من تدمير قرطاجنة . إن الأكاديمية الفرنسية انتخبت المارشال ليوتى عضواً بها ، أفتدرون ماذا كان موضوع « خطبة القبول » التي افتتحت حياته الأكاديمية وفقاً لتقاليد الندوة الأدبية المذكورة ؟... كان موضوع الخطبة « الاستعمار » ... اقرأوا الخطبة المذكورة تجدوها قطعة أدبية رائعة في مدح الاستعمار وتمجيده ... إنها تشرح فوائد الاستعمار المادية والمعنوية بأسلوب حار بليغ ، وتدعو إلى «الإيمان» بضرورته لحياة فرنسا !

« لأن الاستعمار — مصدر هام للقوة والثروة ، ومنبع لا ينضب للجيش ، وساحة تدريب وتكوين للقواد ... ولأن الأمم المحرومة من المستعمرات تكون جانحة إلى الركود والجمود الروحي . . . »

أعتقد أن هذه الخطبة من أبرز الأمثلة والأدلة على تداخل وتشابك الأدب والاستعمار؛ فلا يجوز لنا إذن أن نقول بوجوب التمييز بين «فرنسا الأدبية المتمدنة وفرنسا السياسية الاستعمارية » بوجه من الوجوه .

وأما إذا قيل : « إن القصد من التمييز المبحوث عنه ، هو (تقدير الأدب الفرنسي) في حد ذاته ، بقطع النظر عن السياسة الفرنسية والاستعمار الفرنسي » ، فأنا أسلم بصحة هذا الرأي ، غير أنني أقول بلا تردد : إذا كان الأمر كذلك ، فلا يبقى داع ولا مبرر للرثاء . . . لأن « الأدب الفرنسي » ظل خارجاً عن حدود النكبات ؛ فإن النكبة التي نحن بصددها حلت بالدولة الفرنسية والجيش الفرنسي لا بالأدب الفرنسي ... لأن انهيار الجيش لا يستوجب انهيار الأدب ، والاندحار في ميادين الحرب والسياسة لا يستلزم الاندحار في ميادين الأدب والثقافة ..

إنني أستطيع أن أخطو خطوة أخرى في هذا السبيل فأقول :

« إن مثل هذه النكبات قد لا تخلو من الفائدة إلى الأدب ، لأنها قد تكون منبتاً خصباً للانتاج الأدبي . فإن الآلام والأتراح تكون — بوجه عام — أفعل من الأفراح في إثارة العواطف ، وتوليد الأدب الرائع ...

وعلى كل حال فإن نظرية التمييز بين فرنسا الأدبية وفرنسا الاستعمارية لا تستند على أساس قويم من هذه الوجهة أيضاً .

وأما القول في وجوب التفريق بين الشعب والحكام وعدم اعتبار الشعب مسؤولا عن أعمال الحكام ... فهو غريب جدا ، ولا سيما بالنسبة إلى فرنسا التي تفخر وتباهي بالديمقراطية والجمهورية والإدارة الشعبية ...

أنا لا أنكر أن الحكام قد يستطيعون في بعض الأحوال أن يجروا شعبهم إلى الاتجاه الذي يريدونه ؛ غير أنني أعتقد أن ذلك الاتجاه لا يمكن أن يستمر طويلا إذا لم يأت موافقاً لنزعات الشعب ويجد هوى في أمياله النفسية...

ومن المعلوم أن « الاستعمار » لم يكن من الحوادث العارضة في تاريخ فرنسا ... بل ان تاريخ الاستعمار هناك طويل وطويل جدا ؛ حتى ان بدء الاستعمار الفرنسي للبلاد العربية نفسها يعود إلى أكثر من قرن . فإن فرنسا بدأت حملتها على الجزائر سنة ١٨٣٠ وقد مضى على ذلك التاريخ قرن كامل مع عقد من السنين ... غيرت فرنسا « نظام حكمها » — خلال هذه المدة أربع مرات بل خمسا ، انتقلت من الملكية إلى الجمهورية ، فالامبراطورية ، ثم عادت إلى الجمهورية . والآن أخذت تجرب شكلاً جديداً من نظام الحكم ... مع هذا لم تنحرف عن سلوكها الاستعماري طوال هذه المدة وخلال هذه النظم

المختلفة . فلما أتمت استعمارها للجزائر بين شتى الانقلابات السياسية ، واستولت على تونس سنة ٨٨٢ ، وبسطت حمايتها على مراكش سنة ١٩١١ ، واستولت على سورية ، وأتمت استعمارها للمغرب الأقصى بعد الحرب العالمية ... وقد توالى خلال هذه المدة الطويلة عدة أجيال ، ونشأ وتنازع فى غضونها عشرات الأحزاب ، وتولى الأمر فيها عشرات وعشرات من الحكومات المتضاربة النزعات . . . ومع كل هـذا ، لقد ظل « العمل الاستعمارى » هو هو ، دون أن يتوقف أو يتغير من جراء تبدل نظم الحكم ، أو تعاقب الحكومات وتوالى الأجيال ... فلا يجوز لنا أن نسلم بأن « الاستعمار الفرنسى » من أعمال حكام فرنسا ، فلا يعتبر الشعب الفرنسى مسؤولا عنه ... »

* * *

هذا ، ومما يسترعى النظر ، أن معظم ما كتب فى رثاء فرنسا وفى الدفاع عن ذلك الرثاء — فى اللغة العربية — يظهر آثار افتتان غريب بها ومغالاة شديدة فى اعتبارها أرقى شعوب الأرض على الإطلاق ...

فقد قال أحد الكتاب « إن المساواة فى العدل الاجتماعى لم تكد تتحقق فى أمة من الأمم فى كل أدوار التاريخ إلا فى فرنسا » ... كما قال كاتب آخر : « لم يمر ثائر على الاستعمار فى مشرق أو مغرب إلا وفى روحه جذوة من النار التى أوقدتها باريس للغضب على استعباد الشعوب » .

وقال أحدهم « لا أعرف فرداً قد ربى فيه الوازع الشخصى بمثل ما ربى فى الرجل الفرنسى » .

وقد صاح أحد الكتاب قائلاً : « إن قوة الألمان فيض من قوتك يا باريس » كما خلع كاتب آخر على فرنسا سلسلة نعوت خارقة مثل « مبعث النور والحرية ومهد الإختراعات »

إن معظم هذه المدعيات تخالف الحقائق الراهنة مخالفة صريحة ، كما ان ما تبقى منها ينطوى على مغالاة صارخة ...

فإن التاريخ يذكر لنا عشرات الثورات التى قامت قبل ثورة باريس المعلومة . والفرنسيون أنفسهم يعترفون بأنهم تأخروا كثيراً فى تحقيق المساواة فى العدل الاجتماعى . كما أن معظم مفكريهم يشكون بمرارة ضعف الوازع الشخصى فى نفوس مواطنيهم ، ويتحدون بصراحة بعض الأمم من جراء الوازع الشخصى المبحوث عنه ...

واما نعت فرنسا « بمبعث النور ومهد الاختراعات » واعتبار الفرنسيين أرقى شعوب الأرض على الإطلاق ، فإن كان ذلك من الدعاوى التى كان يمكن الدفاع عنها فى دور من أدوار التاريخ ، فقد أصبح من القضايا التى لا يمكن التسليم بها فى الدور الذى نعيش فيه الآن ...

لقد فند الفيلسوف الإنكليزى الشهير « هربرت سبنسر » الأسطورة القائلة « بتفوق الفرنسيين » على جميع شعوب الأرض فى « المدخل » الذى كتبه لعلم الاجتماع ، قبل نحو سبعة عقود من السنين ، وانتقد انتقاداً لاذعاً المبالغات المفرطة التى كانت تلقب فرنسا بلقب « محررة الأمم » ، والتى كانت تدعى بأن اندراس باريس يعنى انطفاء مشعل المدنية .

انا لا أشك فى أن مثل هذه المبالغات التى استثارت انتقادات هذا الفيلسوف عندئذ ، قد أصبحت أشد بعداً عن الحقيقة الآن ، وأجدر بالانتقاد الشديد فى هذا الزمان .

لا أنكر ان فرنسا كانت أرقى بلاد العالم فى دور من أدوار التاريخ ؛ هذا الدور هو العهد الذى يمتد بين أواسط القرن السابع عشر وأواخر الثامن عشر ، وأعرف أن البعض من المفكرين الذين استعرضوا تاريخ أوروبا استعراضاً فلسفياً ، ولاحظوا تتابع دور الاقطاع ودور الانبعاث « قد سموا الدور الذى نحن بصدده باسم « الدور الفرنسى » ؛ غير أننى أعرف أيضاً أن ذلك الدور قد مضى وانطمس فى أغوار التاريخ منذ مدة طويلة ؛ لأن حالة أوربا وحالة العالم تبدلت تبدلاً هائلاً خلال القرن التاسع عشر ، فلم تستطع فرنسا أن تحتفظ بمنزلتها السابقة بين هذه التبدلات والتقلبات العالمية الهائلة . أنا لا أود أن أقول : ان فرنسا تأخرت منذ ذلك الحين ؛ غير إننى أقول أن أمماً ودولاً أخرى قامت ونهضت وتقدمت بسرعة هائلة منذ ذلك العهد فأخذت تتسابق مع فرنسا تسابقاً عنيفاً فى جميع ميادين التقدم والرقى ... وقد لحقتها فى معظم الميادين ، بل سبقتها فى بعض الميادين . فقد خرجت الحضارة العصرية من سيادة فرنسا المعنوية منذ مدة غير قصيرة ، ففقدت فرنسا بذلك مكانتها السابقة بصورة قطعية .

القضايا الكبرى فى الإسلام

١٥ – قتل الوليد بن يزيد

للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

فى سنة ست وعشرين ومائة ثار يزيد بن الوليد المُلَقَّبُ بالناقص على الوليد بن يزيد فقتله ، وكان الوليد بن يزيد من فتيان بنى أمية وظرفائهم وأجوادهم وأشدائهم ، منهمكاً فى اللهو والشرب وسماع الغناء ، وكان يزيد بن الوليد يظهر النُّسُكَ ويتواضع ، وهو الذى يقال فيه وفى عمر بن عبد العزيز : الناقص والأشج أَعْدَلاَ بنى مروان . أى عادِلاَهُمْ ، ولايجرون أفعل التفضيل على بابه ، لأنهما تقتضى نسبة العدل إلى غيرهما من بنى مروان ، ولم يكن فى بنى مروان عادل سواهما . وهكذا يقرن التاريخ ذلك الناقص بعمر بن عبد العزيز فى العدل ، مع أن عمر بن العزيز لو عاش إلى زمانه ما فعل فعله فى قتل ابن عمه من غير تحقيق فى أمر ما نسب إليه ، ولم يقم حول الوليد من الأخبار التى لا تمحيص فيها ما يسوغ الإقدام على قتله ، وما يُشَكِّكُ الناس فى دينه من غير روية ولا تثبيت ، والقضاء أدق من التاريخ نظراً ، وأقوى منه تثبتاً ، لأنه لا يحكم إلا بالبينة العادلة ، والأصل عنده البراءة ما لم تقم أدلة قاطعة على الإدانة ، فيجب أن يدرس ما نسب إلى الوليد درساً قضائياً ، وأن يرجع إلى تحقيق ما نسب إليه من تهم ، ليتبين أمر الوليد فى ذلك بياناً عادلا ، ولا ينزل به إلى ذلك الحضيض الذى نزل به التاريخ إليه ، وليتبين أمر ذلك الناقص الذى يشبهه الناس بعمر بن عبد العزيز ، ولم يكن من ذلك الملك العادل فى شىء ، وإنما كان الذى يشبهه فى زمنه أخ له لم يطمع فى الملك طمعه ، وسيكون قوله فى هذه القضية هو القول الفصل .

كان يزيد بن عبد الملك قد جعل الأمر من بعده لأخيه هشام ابن عبد الملك ، ثم جعل الأمر منْ بعد هشام لابنه الوليد ، وكان سن الوليد فى ذلك الوقت إحدى عشرة سنة ، وقد عاش أبوه يزيد ذلك حتى بلغ خمس عشرة سنة ، فكان يقول له : الله بينى وبين من جعل هشاما بينى وبينك . وكأنه كان يعرف ما سيلقاه ابنه من أخيه هشام ، فإنه لم يكد يتولى الملك بعد أخيه يزيد حتى أراد الوليد على خلع نفسه من ولاية العهد ، ليجعل الأمر من بعده لابنه مَسْلَمَةَ فأبى الوليد ذلك كل الإباء ، فتنكر له هشام وأضرَّ به ، وجعل يشيع حوله أخبار السوء لتسقط منزلته عند الناس ، وكان يزيد يقول الشعر فى الخمر والغزل ، وله فى ذلك أشعار جياد كان أبو نواس يأخذ منها ، ويحذو حذوه فيها ، وهذا إلى شغفه بسماع الغناء ، وانصرافه عن الناس إلى مجالسه بين أرباب ذلك الفن ، فوجد هشام فى ذلك مرتعاً خصيبا للتزيُّد على الوليد ، وتنقيصه عند الناس بما يشيعه حوله ، حتى جعل كثيراً منهم ينظرون إليه نظرة سوء ، ويتهمونه فى دينه وعرضه ، ولكنه على اجتهاده فى ذلك لم يقدر أن يثبت عليه شيئاً يمكنه من خلعه من ولاية العهد ، مع أن ملكه استمر من سنة خمس ومائة إلى سنة خمس وعشرين ومائة .

فلما ملك بعده الوليد بن يزيد لم ينس ما فعله معه عمه هشام ، فأساء إلى أولاده ، وأخذ سليمان بن هشام فضربه مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغرَّبه إلى عمَّان من أرض الشام ، وكذلك أساء إلى أولاد عمه الوليد بن عبد الملك ، ففرق بين روح بن الوليد وامرأته ، وحبس عدة من إخوته ، فأخذوا يرمونه بالكفر ، ويشيعون بين الناس أنه يغشى أمهات أولاد أبيه ، إلى غير ذلك من التهم التى ستأتى بعد ، وكان أشدهم فى ذلك يزيد بن الوليد ،

مع هذا لا تزال تتمسك بالشهرة التى كانت اكتسبتها سابقاً ، بالرغم من حرمانها من التفوق الذى كانت أحرزته قبلا فى هذا المضمار .

إننى أشبه منزلة فرنسا وشهرتها المزعومة بمكانة « الوجوه والأعيان » الذين يتمتعون فى بعض المجتمعات بشهرة المكانة التى كانوا امتازوا بها قبلا ، دون أن يعترفوا بسمو المكانة التى قد أحرزها غيرهم بكل جدارة واستحقاق .

وكما أن بعض الناس يتأثرون — عادة — بالشهرة السابقة دون أن يلتفتوا إلى « الحالة اللاحقة » فإن بعض كتابنا ظلوا تحت تأثير شهرة فرنسا السابقة ، دون أن يعرضوا هذه الشهرة إلى حكم الأحوال الحالية ويزنوها بالموازين الجديدة .

(البقية فى العدد القادم) ＊＊＊

وكان الناس إلى قوله أميل ، لأنه كان يظهر النسك ويتواضع ، فإذا أردنا تحقيق ذلك على الاجمال وجب أن نرجع فيه إلى رجل من بنى أمية كان له خطره بينهم فى ذلك الوقت ، وهو العباس ابن الوليد أخو يزيد بن الوليد ، وكان أمرأً أصدق ، ولم يكن فى بنى أمية مثله ، لأنه كان يتشبه بعمر بن عبد العزيز فرأيه فى ذلك يرجح كل رأى ، لتلك الصفات التى تحمله على قول الحق ، ولأنه أخو يزيد بن الوليد فلا يتهم فى شهادته عليه .

وقد مشى إليه أخوه يزيد فشكا إليه ما يجرى على الناس من الوليد بن يزيد ، فقال له : يا أخى إن الناس قد ملّوا بنى مروان ، وإن مشى بعضكم فى إثر بعض أكلتم ، ولله أجل لا بد أن يبلغه ، فانتظره .

ثم مشى إليه مرة أخرى هو وأخوه بشر بن الوليد ، فكلمه بشر فى أن يخلع الوليد بن يزيد ، فنهاه عن ذلك ثم قال له : يابنى مروان ، أظن أن الله قد أذن فى هلاككم ، ثم قال :

إنى أعيذكمُ بالله من فتنٍ مثل الجبال تسامى ثم تندفعُ

إن البرية قد ملّت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا

لا تلحمُنّ ذئابَ الناس أنفسكم إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

لا تبقرُنّ بأيديكم بطونكم فثمّ لا حسرةٌ تغنى ولا جزع

ثم عاوده يزيد مرة أخرى وكان قد أجمع أمره ، وعزم على الدعوة لنفسه ، فشاور يزيد بن عمر الحكمىّ فقال له : لا يبايعك الناس على هذا وشاور أخاك العباس ، فإن بايعك لم يخالفك أحد ، وإن أبى كان الناس له أطوع ، فإن أبيت إلا المضى على رأيك ، فأظهر أن أخاك العباس قد بايعك . فأتى يزيد أخاه العباس فاستشاره فنهاه عن ذلك ، فرجع وبايع الناس سراً وبث دعاته بينهم ، ثم عاود أخاه العباس فاستشاره ودعاه إلى نفسه ، فزجره وقال له : إن عدت لمثل هذا لأشدنك وثاقا وأحملك إلى أمير المؤمنين فخرج من عنده فقال العباس : إنى لأظنه أشأم مولود فى بنى مروان .

ولما قامت الحرب بين الوليد ويزيد كتب العباس إلى الوليد إنى آتيك ، فلما علم بذلك جيش أخيه أرسل من وقف له فى الطريق ، فأخذوه قهراً إلى جيشهم . وأكرهوه على البيعة لأخيه يزيد ، ونصبوا له راية وقالوا : هذه راية العباس قد بايع لأمير المؤمنين يزيد . فقال العباس : إنا لله ، خدعة من خدع الشيطان، هلك بنو مروان . فتفرق الناس عن الوليد حين رأوا راية العباس وتم الأمر ليزيد بهذه الخدعة الماكرة .

فلما رأى الوليد ذلك ظاهر بين درعين ، وركب فرسه السندى، وقاتلهم قتالا شديداً ، فناداهم رجل : اقتلوا عدو الله قتلة قوم لوط . ارجموه بالحجارة . فلما سمع ذلك دخل القصر وأغلق عليه الباب ، فأحاطوا به من كل باب ، وضيقوا عليه ، فدنا من الباب وقال : أما فيكم رجل شريف له حسب وحياء أكلمه ؟ فقال يزيد بن عنبسة السكسكى : كلمنى . فقال : يا أخا السكاسك ، ألم أزد فى أعطياتكم ، ألم أرفع المؤن عنكم ، ألم أعط فقراءكم ، ألم أخدم زمناكم . فقال يزيد بن عنبسة : إنا ما ننقم عليك فى أنفسنا ، إنما ننقم عليك فى انتهاك ما حرم الله ، وشرب الخمر ، ونكاح أمهات أولاد أبيك ، واستخفافك بأمر الله . فقال : حسبك يا أخا السكاسك ، فلعمرى لقد أكثرت وأغرقت ، وإن فيما أحل الله سعة عما ذكرت .

ثم رجع إلى داخل القصر وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه ، وقال : يوم كيوم عثمان . فصعدوا على الحائط ونزلوا إليه فاحتزوا رأسه ، وكان آخر كلامه : الله لا يرتق فتقكم ، ولا يلمّ شعثكم ، ولا يجمع كلمتكم . ثم ساروا برأسه إلى يزيد بن الوليد فأمر بنصبه ، فقال له يزيد بن فروة مولى بنى مرّة : إنما تنصب رؤوس الخوارج ، وهذا ابن عمك وخليفة ، ولا آمن إن نصبته أن ترقّ له قلوب الناس ، ويغضب له أهل بيته . فلم يسمع منه ، ونصب الرأس على رمح فطافوا به دمشق .

وقد أكبر الناس قتل الوليد بن يزيد بهذا الشكل، وثار لقتله أهل حمص وأهل فلسطين وغيرهم ، واضطرب أمر بنى مروان اضطرابا كبيرا ، وعجل الله بأيام يزيد بن الوليد ، فلم يدم له الملك إلا خمسة أشهر واثنى عشر يوما ، ولم يدم أمر بنى مروان بعده إلا سنين تعد على الأصابع .

فإذا أخذنا فى قصة الوليد بن يزيد بهذا السياق ، وهو قائم على وقائع تنطق بنفسها ، وجدنا أنه لم يزد أمره عن غيره من بنى مروان ، وأنه كان سائراً على سنتهم فى الملك ، آخذا بطريقهم فى سياسة الناس ، ووجدنا أن يزيد بن الوليد لم يخرج عليه لأخذه بسنة آبائه ، لأن الناس كانوا قد ألفوها على ما فيها من إرهاقهم ،

فلم يكن فى أخذ الوليد بها ما يثيرهم عليه ، وقد سار عليها يزيد بعد قتل الوليد ، فتشفّى من رأسه ذلك التشفى ، وعسف بأولاده وأنصاره كما كان يعسف الوليد وغيره من بنى مروان ، ولو أنه خرج عليه لأنه يريد تغيير تلك السياسة كما غيرها عمر بن عبدالعزيز، لكان له فى ذلك بعض العذر ، ولكان له فيه غرض شريف ، ولكنه كان يريد الملك لا أكثر ولا أقل ، فسلك إليه ذلك الطريق الشائك ، ولم يجد إلا أن يغالى فى أمر الوليد ، ويلصق به من أشنع التهم ما يلصق ، ليثير العامة عليه ، ويصل بذلك إلى غرضه فى الملك . ولقد كان عمه هشام أشرف منه خصومة ، وأقل منه حرصاً على ذلك المنصب الزائل ، فلم يستبح لنفسه أن يخلع الوليد من ولاية العهد على غير إرادته ، وخشى من ذلك مالم يخشه يزيد ، وقد نصحه أقرب الناس إليه فلم ينتصح ، وحذر مما يقدم عليه فمضى فيه ولم يلتفت إلى نصح ناصح .

فهل بعد هذا نصدق شيئاً من تلك التهم الشنيعة التى ألصقها أشياعه بالوليد ليصلوا بها إلى مآربهم ، وليرضوا الناس بعد أن غضبوا لقتلهم إياه ؟ وهل نصدق ما يروونه من أنه فتح المصحف يوما فخرج فيه (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد) فألقاه ورماه بالسهام وقال :

تُهَدِّدُ كل جبار عَنِيدٍ فهأنذاك جبارٌ عَنِيدُ
إذا ما جئت ربك يوم حشرٍ فقل يارب مزّقنى الوليدُ

وهل بعد هذا نصدق ما رواه العلاء بن البندار من أنه كان زنديقا ، وأن رجلا من كلب كان يقول بمقالة الثَّنَوِيَّة ، فدخل عليه العلاء يوماً وعنده ذلك الكلبى ، وإذا بينهما سفط قد رفع رأسه عنه ، فإذا ما يَبْدُو له منه حرير أخضر ، فقال الوليد : ادن ياعلاء . فدنا فرفع الحرير فإذا فى السفط صورة إنسان ، وإذا الزئبق والنوشادر قد جعلا فى جفنه ، فهو يطرف كأنه يتحرك ، فقال له الوليد : هذا مانى ، لم يبتعث الله نبياً قبله ، ولا يبتعث نبياً بعده . فقال له : ياأمير المؤمنين ، اتق الله ، ولا يغرنك هذا الذى ترى عن دينك . فقال الكلبى : ياأمير المؤمنين ، ألم أقل لك إن العلاء لا يحتمل هذا الحديث .

وهناك تهم أقبح من هذه التهم تلصق بالوليد ، يحجم القلم حياء عن ذكرها ، ولا يرى أن يلوث بها صفحات مجلة الرسالة الغراء ، وكلها تهم إذا فتح لها التاريخ بعض صحائفه ، لأنه يروى كل سمين وغث ، فإن القضاء لا يمكن أن يؤاخذ الوليد بها ، لأنه لا يؤاخذ الشخص فى دينه بما يقوله غيره عنه ، وإنما يؤاخذه بما يقر به على نفسه ، وقد تبرأ الوليد من هذه التهم الشنيعة التى تلصق به ، فلا يمكن القضاء أن يؤاخذه بها ، لأنه يتحرج مما لايتحرج منه التاريخ ، وقد وضعت فى يده رقاب الناس ، فلا يمكنه أن يجازف فيها ، ولا يستبيح أن يحكم فيها إلا بما يراه يقينا . ولو أن هذه التهم التى تلصق بالوليد قدمت إليه لعاقب أصحابها عليها ، لأنه ليس عندهم ما يثبتها ، فيعدها من القذف الذى يعاقب عليه ، حفظاً لأعراض الناس ، وصونا لأصحاب المروءة والشرف .

ويكفى فى براءة الوليد من تلك التهم الشنيعة وقوف العباس ابن الوليد ذلك الموقف منه ، وهو ذلك الرجل التقى الصادق ، وقد كان أشبه بنى أمية بعمر بن عبد العزيز لا أخوه يزيد الناقص ، وهو الذى كان يجب أن يقرن إليه فى ذلك القول المشهور — الناقص والأشج أعدلا بنى مروان — لأن الناقص لم يكن أمره فى شئ من أمر عمر بن عبد العزيز .

وقد أنكر قوم ما قيل فى حق الوليد من ذلك ، وقالوا إنه قيل عنه وألصق به وليس بصحيح . قال المدائنى : دخل ابن للغمر ابن يزيد أخ الوليد على الرشيد ، فقال له : ممن أنت ؟ فقال : من قريش . قال : من أيها ؟ فأمسك ، فقال : قل وأنت آمن ولو أنك مروانى . فقال : أنا ابن الغمر بن يزيد . فقال الرشيد : رحم الله عمك ولعن يزيد الناقص وقتلة عمك جميعا ، فإنهم قتلوا خليفة مجمعا عليه ، إرفع إلى حوائجك . فرفعها إليه فقضاها .

وقال شبيب بن شبة : كنا جلوساً عند المهدى فذكروا الوليد، فقال المهدى : كان زنديقا ، فقام أبو عُلاثة الفقيه فقال : ياأمير المؤمنين ، إن الله عز وجل أعدل من أن يولى خلافة النبوة وأمر الأمة زنديقا ، لقد أخبرنى من كان يشهده فى ملاعبه وشربه عنه بمروءة فى طهارته وصلاته ، فكان إذا حضرت الصلاة يطرح ثياباً كانت عليه من مطيَّبة ومصبَّغة ، ثم يتوضأ فيحسن الوضوء ، ويؤتى بثياب نظاف بيض فيلبسها ويصلى فيها ، فإذا فرغ عاد إلى تلك الثياب فلبسها ، واشتغل بشربه ولهوه ، أفهذه أفعال من لا يؤمن بالله ؟ فقال المهدى : بارك الله عليك يا أبا علاثة .

عبد المتعال الصعيدى

هذا العـــالم المتغير

للأستاذ فوزى الشتوى

البلاجرا قد تؤدى الى الجنون

تصور قرية عدد سكانها ٥٠٠٠ نسمة ، منهم ٥٠٠ مصابون بالبلاجرا فلا يستطيعون الحركة ، فضلا عن حالة الاضطراب العصبي التي ترهقهم . فكم تخسر القرية المصرية بفقدها ١٠ ٪ من أيديها العاملة فقداناً كاملا ؟ وكم تخسر هذه القرية أيضاً من وقت يبذله الآخرون في العناية بهؤلاء المرضى ؟

يود الدكتور على حسن أستاذ الكيمياء الحيوية بكلية الطب لو يتاح له الوقت فيقدر هذه الخسائر بالأرقام ، ويبين للأمة كم تخسر من الأموال كل سنة بانتشار هذا المرض الخبيث الذي يصيب سكان بعض القرى بنسبة تتراوح بين ٦ و١٠ ٪ من سكانها

تبدأ عوارض هـــذا المرض بآلام في السلسلة الفقرية واضطراب في الهضم ، وضعف عام ينتاب الجسم كله . فإن استمر سوء التغذية احمر الجلد وجف .

والمسئول الأول عن هذا المرض هو الطفيليات وإن لم تكن هي سببه المباشر ؛ فالإصابة بالبلاجرا نتيجة لسوء التغذية أو بالتعبير الطبي نقص في كميات الفيتامين في الجسم وهو الفيتامين المعروف باسم حامض النيكوتين .

وسوء التغـذية كما يقول رجال قسم الكيمياء الحيوية بكلية الطب بمصر يرجع إلى عاملين يؤدى أحدهما إلى الإصابة بالمرض وأولهما خارجي بأن لا يجد المريض حاجته من المواد الغذائيـة ، والثاني داخلي وهو أن يصاب الإنسان بطفيليات تحرمه من المقدار اللازم لغذاء جسمه بأن تتغذى الطفيليات بطعامه . وفي مصر أكثر المصابين بالبلاجرا مصابون أيضاً بالطفيليات .

« ومما يؤسف له أن تنتشر الطفيليات في بعض قرانا بنسبة مزعجة تصل إلى ٩٠ ٪ من عدد السكان . فإن أراد الطبيب علاج البلاجرا أو أى مرض آخر أضعفت الطفيليات علاجه مما يستنفد وقته وعقاقيره ومال الدولة أيضاً » .

ومن المتناقضات في ريفنا المصري أن زيادة الخير معناها انتشار المرض . ففي شمال الدلتا حيث الري الصيفي ، والماء المتوفر ، والزراعة المنتعشة وباء الطفيليات من بلهارسيا وانكلستوما وغيرها من الأمراض الشديدة الفتك بالفلاح بخلاف ما يشاهد في البلاد القليلة الخير التي تروى بالحياض .

ولا يسبب مرض البلاجرا أمراض الجنون ، ولكنه يظهرها عند المستعدين للاصابة بواحد منها ؛ فهو يضعف الجسم ويجعل الإنسان في حالة عصبية سيئة تكشف عن علل جسمه الكامنة ، فلا يلبث أن تظهر عليه أعراض الجنون فتخسر الأمة جهده ، كما تخسر ثقتها بنفسها إذ يرفع نسبة المجانين فيها .

لفت هذا المرض نظر قسم الكيمياء الحيوية كما استرعى انتباهه علاجه المتبع في أمريكا . وعلى ضوء اختلاف البيئة والغذاء عندنا وعندهم خالفهم في العلاج أيضاً وأثبت أن علاج الأمراض يجب أن يتبع سياسة قومية لا سياسة تقليدية . ولئن اتفق المرض في جوهره فإنه يختلف في تفاصيله باختلاف البيئة من جو وتغذية .

ففي أمريكا تكون البلاجرا مصحوبة بنقص ثلاثة أنواع من الفيتامين المعروف باسم مركب (ب) أما في مصر فأغلب الحالات بنقصها فيتامين واحد من هذه المجموعة وهو حامض النيكوتيك

وفي سنة ١٩٤١ أجرى القسم التجارب لاختبار نظريته فعهد إلى أحد تلاميذه الدكتور شوقي متري بوزارة الصحة تطبيق النظرية طبياً فجربها في ٤٨ حالة عالجها كلها بفيتامين حامض النيكوتين فشفيت جميعها في مدة لا تتجاوز اسبوعاً واحداً . وكان نجاحه مؤيداً لنظرية الدكتور على حسن . وأتيح بواسطته توفير نفقات العلاج بالفيتامينات الأخرى .

وكانت خطوته الموفقة برهاناً ساطعاً على وجوب بحث أمراضنا بحثاً محلياً . فلا يجوز أن نقلد العلماء الأجانب فيما يوفقون إليه تقليداً أعمى ؛ بل علينا أن نستفيد من تجاربهم بما يتفق وحاجة بلادنا . وأصلح أناس يؤدون هـــذا العمل هم إخصائيونا فهم أدرى بحالة البلاد من سواهم ، فمنذ بدأ هذا العلاج في سنة ١٩٤١ لم تشذ عنه إلا حالة واحدة .

إنتاج البنسلين بسرعة

حار الكيماويون في إيجاد طريقة سريعة يجففون بها البنسلين

حتى يتيسر لهم إنتاجه بكميات كبيرة تكفى حاجة العالم إلى هذا العقار الهام فى مكافحة الأمراض . وكان تعريضه للطرق العادية السريعة لتبخير مائه يقتل العقار ويجعله عديم القيمة .

وقد توصل أحد المصانع إلى استنباط طريقة كهربائية يجفف بها البنسلين فى نصف ساعة ، وهى عملية كانت تحتاج إلى يوم كامل . واستعانوا لتحقيق أغراضهم بالذبذبات اللاسلكية .

وتتلخص هذه الطريقة فى وعاء مفرغ من الهواء تثبت فيه دوارات تلف بسرعة ٣٠٠٠ لفة فى الدقيقة وتعمل الأحزمة المعدنية بين الدوارات كصفائح كهربائية . وبهذا تيسر إغلاء العقار فى درجة ٥٠ فهرنهيت بغير أن يصيبه أى تلف .

ومن تجارب تجفيفه السابقة استخدام الجليد فى أوان مفرغة من الهواء .

معالجة الأسنان بمياه الشرب

يتجه بعض العلماء الآن إلى علاج أمراض الأسنان بالجملة وذلك بإضافة مادة الفلورين إلى مياه الشرب . فقد اجتمع أخيراً فى معهد نيويورك لفيف من الإخصائيين فى أمراض الأسنان والصحة العامة ودرسوا النتائج التى توصل إليها بعضهم . وأخيراً قرر خمسة منهم أن استعمال الفلورين فى مياه الشرب كمادة مانعة لتلف الأسنان ووقاية الصحة يحتاج إلى تجارب قد تمتد إلى عشر سنوات أخرى

ومن النتائج التى وصل إليها الطب الحديث ما قاله الدكتور فرندلى دين عن تجربة أجريت عن ٧٫٢٥٧ تلميذاً تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٤ سنة عاشوا طول حياتهم يشربون من المياه المكررة العادية فى المدن ثم أضيف إلى المياه التى يشربونها نسبة ضئيلة من الفلورين قيمتها واحد إلى مليون فقلت نسبة إصابتهم بأمراض الأسنان إلى ثلث نسبة الإصابات فى جماعة أخرى تماثلهم فى العدد وتشرب الماء المكرر العادى .

وقال الدكتور والاس أومستروبخ إن الفحص الطبيعى للاسنان دل على أن السليمة منها تحتوى على كمية أكبر من الفلورين عن الأسنان التالفة . وأيده الدكتور بازيل بيلى فقال إنه أجرى ست دراسات على تغطية الأسنان بأحد مركبات الفلورين فقلت نسبة التلف فى الأسنان من ٢٠ إلى ٥٠٪ بعد استعمال الفلورين من مرتين إلى ١٥ مرة .

وقال الدكتور فردريك ماكاى إن إضافة الفلورين إلى مياه الشرب يقلل تلف الأسنان فى الأمة إلى نصفها .

وتجرى الآن فى كنجستون ونيوبوروف فى ولاية نيويورك تجربة واسعة النطاق ينتظر أن تمتد إلى عشر سنوات وهدفها اختبار قدرة الفلورين فى مياه الشرب على منع فساد الأسنان .

وتحتوى مياه نيوبوروف فى مياهها العادية على فلورين نسبته واحد من المليون . ويضاف إليها مقادير أخرى منه حتى تصل نسبته إلى واحد فى المليون . أما مياه كنجستون فلا تحتوى على فلورين على الإطلاق ؛ وعلى أساس إصابات الأسنان بالأمراض فى البقعتين ودراستها دراسة طبية يستطيع العلماء تقدير فائدة الفلورين فى الماء أو ضرره . على أن الإحصائية التى يريد العلماء الأخذ بها هى نتيجة السنة الثامنة عند ما تكون الأمراض القديمة قد أزيلت والأسنان أخذت حاجتها من مناعة الفلورين .

أبناء العظماء ومستقبلهم

قلما يصل الأبناء إلى اوج الشهرة التى وصل إليها آباؤهم . وذلك تبعاً لتقرير كتبه البروفسور جوزيف شنيدر فى مجلة الأبحاث الاجتماعية الأميركية فقال فيه ان أبناء الوزراء نادرا ما يصبحون وزراء معروفين وكذلك أبناء الأطباء ورجال الدين .

وقد قارن الباحث بين ميول الشعبين الإنجليزى والإميركى معتمداً على إحصائيات استقاها من عام ١٦٠٠ إلى الآن فوجد أن المشهورين من الاميركيين كانوا يخرجون غالباً من الطبقة المغمورة ويصلون إلى اوج رفعتهم عن طريق الأعمال أو الفلاحة أو السياسة أو الصحافة أو الأعمال الفنية .

ووصل أكثر مشاهير الإنجليز إلى مراكزهم عن طريق الدين وكتابة سير الأفراد أو الرسائل الأدبية ، وقال ان ٤٥ فى المائة من مشاهير الرجال فى الولايات المتحدة زاولوا أعمالاً ما كان يظن انها ترفع من شأنهم . أما أبناء الطبقة المنتخبة فى الولايات المتحدة فقد اكتسبوا الشهرة عن طريق السياسة أو الحرب بينما وصل أربعة اخماس أبناء الفنانين إلى مراكزهم الرفيعة عن طريق الفن وكتابة الرسائل .

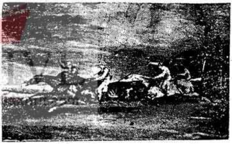
فوزى الشتوى

رسالة الفن

٦ – الفـــن

للكاتب الفرنسي بول جيزيل
بقلم الدكتور محمد بهجت

إن ما يعيب بعض المصورين المعاصرين عندما يريدون تصوير خيول تعدو هو أنهم يمثلونها فى أوضاع أخذت فى لمح البصر .



سباق ابسوم (للمصور جريكول)

انتُـقِد جريكول (Gericault) لأنه صور بلوحته الموجودة باللوفر وهى « سباق ابسوم » خيوله تعـدو وقد تمطّـطت جسومها حتى لتكاد تلامس بطونها الأرض ، راميـة بقوائمها الأمامية إلى قدام وبالخلفية إلى وراء فى نفس اللحظة . ويقال إن لوح الفوتغرافية الحساس لا يعطى مثل هذه النتيجة . وحقيقة ما نرى فى التصوير الفوتغرافى هى أنه عند ما تكون قوائم الحصان الأمامية إلى قدام يكون للقوائم الخلفية التى دفعت الجسم إلى الأمام بطبيعة وضـعها وقت للتجمع تحت الجسم لإعادة الـكرة ، فتكون بذلك القوائم الأربع متجمعة مع بعضها فى الهواء فى وقت معين ، ويبدو الحيوان كأنه يقفز من على الأرض وكأنه بغير حَـرَاك وهو فى ذلك الوضع .

« وأعتقد الآن أن جريكول هو المصيب وأن العدسة هى المخطئة لأن خيوله تظهر كأنها تعدو . ويتبين ذلك عنـد ما يتتبع الناظر اللوحة من اليمين إلى الشمال ، فيرى أول ما يرى القوائم الخلفية تنجز ذلك الجهد الذى تنشأ عنه القوة الدافعة العامة ، ثم يرى بقية الجسم ينبسط ويتمطط ، وأخيراً يرى القائمتين الأماميتين ممدودتين وهما تهويان إلى الأرض . وهذا خطأ فى الواقع ، لأن هذه الحركات لا يمكن أن تحدث فى وقت واحد ، ولـكنه صواب إذا ما لوحظت الأجزاء على التتابع ، وهذا الصدق وحده هو الذى يعنينا لأنه هو الذى نراه ونتأثر به .

لاحظ إلى ذلك أن المصورين والمثالين الذين عند ما يؤلفون بين الأوجه المختلفة لحركة ما فى صورة أو تمثال معين لا ينزلون فى ذلك على حكم العقل أو المهارة الفنية . ولـكنهم يعبرون بكل بساطة عما يشعرون به فترى عقولهم وأيديهم كأنما تنساق فى اتجاه الحركة فيعبرون عن تطورها بالغريزة .

ونرى هنا — كما هو الحال فى كل ميادين الفن — أن الإخلاص وحده هو القاعدة الوحيدة »

صمتُ برهة طويلة أفكر فيما قاله لى إلى أن قطع صمتى بسؤاله :

« ألم أقنعك ؟ »

نعم ، بالطبع . ولـكنى عند ما أتأمل تلك المعجزة ، معجزة التصوير أو النحت التى يمكنها أن تجمع فى جسم واحد حركة تدوم عدة لحظات ، أقول عند ما أتأمل ذلك أسائل نفسى إلى أى حد يتسنى للتصوير والنحت أن ينافسا الأدب — والمسرح بوجه خاص — فى تسجيل الحركة . ولايسعنى إلا أن أقول فى صراحة إننى أميل إلى الاعتقاد أن مثل هذا التنافس لا يمكن أن يجرى لشوط بعيد ، وأن رجال الريشة والإزميل لأشد قصوراً فى هذا الميدان من رجال القلم ، فقال رودان :

ليس قصورنا كبيراً كما تظن . وإذا كان باستطاعة التصوير والنحت أن يهبا الأجسام الحركة ففى مقدورهما أن يأتيا بأكثر من ذلك ؛ بل ويستطيعان فى بعض الأحوال أن يجاريا الفن الدراما طيقى فى إظهار عدة مناظر متتابعة فى نفس اللوحة أو مجموعة التماثيل » فأجبته :

« نعم . ولـكنهم يدلسون بعض الشىء . لأنى أظنك تتكلم عن تلك الصورة القديمة التى تعرض تاريخا شاملا لشخص معين فتظهره

عدة مرات فى أوضاع مختلفة على نفس اللوحة . فمثلا توجد بمتحف اللوفر لوحة زيتية إيطالية صغيرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس عشر تقص علينا تاريخ أوروبا على هذه الوتيرة . فترى فيها أول ما ترى الأميرة الصغيرة تلعب فى حقل نضير مع أترابها للواتى يعاونها على امتطاء صهوة الثور « جوبيتر » ، ثم نراها بعد ذلك مروعة وقد اختطفها الإله وغاص بها فى لجج اليم » . فأجاب رودان :

« هذه طريقة بدائية على الرغم من أن بعض الفحول من الفنانين مارسوها . فمثلا عالج ڤيرونيز Veronese قصة أوروبا هذه بنفس الطريقة كما يتضح من لوحته الموجودة بقصر الدوقية بمدينة البندقية . ولكن على الرغم من هذا النقص فلوحة كاليارى Caliari معجبة . وأنا لم أشر بشئ إلى مثل تلك الطرق الصبيانية لأنى لا أوافق عليها كما يمكنك أن تدرك ذلك . ولكى أجعل نفسى أكثر جلاء ووضوحا يتحتم على أن أسألك أولاً عما إذا كنت تذكر لوحة واتو Watteau المساة « ركوب السفينة إلى جزيرة سايتيرا » فقلت :

« إنى لأذكرها تماما كما لو كانت نصب عينى الآن » .

« إذاً فسوف لا أجد صعوبة فى الإفصاح عن نفسى . فاذا تذكرت رأيت أن الحركة فى تلك اللوحة الفذة تبدأ فى الأمام إلى اليمين وتنتهى فى الخلف إلى اليسار . وتلاحظ أول ما تلاحظ فى مقدم اللوحة شخصين هما سيدة فاتنة وعشيقها المتيم جالسين تحت الظلال الوارفة قريبين من تمثال نصفى لسايبريس Cypris منمق بأضافير الورد وإكليله ، يشتمل الرجل بعباءة مطرزة عليها قلب نفذ فيه سهم . وفى ذلك إشارة لطيفة إلى ما سوف يتجشمه فى هذه المرحلة الغرامية . تراه راكعاً بجانبها يستميلها ويستعطفها فى حرارة ولكنها تقابل ضراعاته بفتور ربما كان مصطنعا ، وتتظاهر كما لو كانت متشاغلة عنه بمعاينة التهاويل التى على مروحتها . ويجلس بالقرب كيوبيد Cupid صغيرفوق كنانته وقدتمرى أكثره . يرى أن المرأة قدأمعنت فى التدلل والتمنع فيجاذبها قميصها ليستلين فؤادها .

وإلى هنا لا تزال المرحلة الغرامية فى مبتداها . هذا هو المشهد الأول . وهاك الثانى : ترى إلى اليسار من ذلك زوجاً آخر أما السيدة هنا فتقبل يد حبيبها الذى يعاونها على النهوض ، وقد أدارت ظهرها إلينا وتدلت من رأسها ذؤابة من تلك الذوائب الشقراء الذهبية التى يصورها واتو برشاقة ساحرة . أما المشهد الثالث فيقع إلى أبعد من ذلك بقليل . ففيه يضع المحب ذراعه حول خصر مالكة لبه ليجذبها إليه ويسير بها فتتلفت إلى قرنائها الذين يحيرها تخلفهم ، ولكنها لا تلبث أن تنقاد فى غير ما تأب .

والآن ينزل المحبون إلى الشاطئ ويندفع الجميع إلى السفينة ضاحكين ولم يعد الرجال بحاجة إلى التوسل والتضرع ، وقد تشبثت السيدات بأذرعهم .

وأخيراً يعاون المحبون فاتناتهم على الاستواء على ظهر السفينة الصغيرة التى تتأرجح على صفحة الماء كأنها الحلم الذهبى وقد ازينت بالأزهار وشارات خافقات من الحرير الأحمر . أما الملاحون فكبون على مجاديفهم وهم على وشك التجديف . وثمت آلهة الحب الصغيرة تتقدمهم محولات على أجنحة النسيم كأنما تقود المحبين إلى الجزيرة اللازوردية التى تلوح فى الأفق » .

« ألاحظ يا أستاذ أنك تحب هذه اللوحة لأنك تذكر كل دقائقها » .

« إنها لمتعة لا يستطيع المرء أن ينساها . ولكن هل لاحظت تطورات هذا التمثيل الصامت ؟ خبرنى بربك الآن : أيها أصدق فى تسجيل الحركات أهو المسرح أم التصوير ؟ حقاً إنه ليصعب على المرء أن يقطع بقول فى هذا الأمر . فها أنت ترى أن الفنان لا يستطيع — إذا ما أراد — أن يصور الحركات العارضة فقط بل ويمثل فصلاً طويلا على حد تعبير الفن الدراماطيقى .

وليس عليه لإدراك النجاح سوى أن يضع أشخاصه بحيث يرى الناظر أول ما يرى منها أولئك الذين يبدأون العمل ، ثم الذين يمضون به ويستمرون فيه . وأخيراً يرى أولئك الذين ينهون ذلك العمل . أتريد مثلا فى النحت ؟ » وعند ذلك فتح كتاباً أخذ

يبحث فيه هنيهة ثم سحب منه صورة فوتوغرافية وقال :

« هاك المارسليز الذى نحته رود ليوضع فى جانب من نصب « قوس النصر » ، ترى « الحرية وقد لبست درعا نحاسية تشق الهواء بأجنحة منتشرة وترعد فى صوت هائل: «إلى السلاح أيها المواطنون » . ترفع يدها اليسرى عالية تستحث بها الأبطال من حولها ، وتمسك بالأخرى سيفاً تصوبه نحو الأعداء . إنها بلا ريب أول ما تشاهد إذ أنها تسود المجموعة كلها . أما ساقاها المنفرجتان



تمثال المارسليز (صنع المثال رود)

اللتان تجعلانها تبدو كأنها تجرى فتخالها نغمة أضيفت إلى هذه الأنشودة الحربية السامية . وكأنى بصوتها القوى المنبعث من فمها الحجرى يشق صماخ الأذن ، فما لك من سماع صوتها من بد ، ولم تكد ترسل دعوتها إلى الحرب حتى تدافعت الأبطال إلى الأمام . فهذا غوطى كأن شعره لبدة الأسد يلوح بخوذته عالياً كأنه يحيى الآلهة وقد وقف ابنه الفتى الصغير إلى جانبه ممسكا بقبضة سيفه يستعطفه ليرافقه إلى ساحة الوغى وقد بدا عليه كأنه يقول : « أنا قوى كما يجب يا أبتاه ، إننى رجل ، أريد أن أذهب معك ، فيقول له أبوه وقد حدجه بنظرة عطف وخيلاء : «تعال» .

أما المشهد الثالث فيتكون من محارب قديم يترنح تحت أعباء عتاده ويجهد للحاق بهم ، إذ يتحتم على كل من يشعر من نفسه القوة أن يذهب إلى ميدان القتال . ثم هذا رجل هِمٌّ قوست السنون ظهره يتبع الجند بأدعيته وصلواته ، وتدل إشارة يده على أنه يعيد عليهم نصائحه التى استخلصها لهم من تجاريبه الخاصة .

ويتكون المشهد الرابع من قواس يثنى ظهره المتعضل ليشد عليه سلاحه ، ومن بوق يرسل نداءه المثير إلى الجحافل ومن بنود تخفق ورماح مشرعة إلى الأمام . لقد صدر الأمر وابتدأ الكفاح فعلا .

ونرى هنا أيضاً رواية مثلت أمام أعيننا ؛ ولكن بينما لوحة « ركوب السفينة إلى سايتيريا » تذكر المرء بهزليات ماريفو marivaux فإن المارسليز يذكره بمآسى كورنيل Corneille وإنى لا أدرى أى الاثنتين أفضل ، إذ أرى فى إحداهما من الروعة والعبقرية بقدر ما أراه فى الأخرى » ثم قال بعد أن حدجنى بنظرة تحدّ ماكرة :

« أعتقد أنك سوف لا تقول بعد الآن بأن لا قبل للتصوير والنحت بمنافسة المسرح » فقلت له : « طبعاً كلا » .

وفى تلك اللحظة لمحت فى الكتاب الذى أعاد إليه صورة المارسليز صورة شمسية أخرى لتمثاله البديع المسمى « رهائن كاليه » ثم قلت :

« ولكى أبرهن لك على أنى أفدت من تعاليمك دعنى أطبقها على عمل من أجل أعمالك ؛ لأننى أرى أنك أنت نفسك تطبق تلك القواعد التى كشفت لى عنها . فهنا فى تمثالك رهائن كاليه(1) ، Burghers of Calais أستطيع أن أرى منظراً متتابعاً كالذى ذكرت من أعمال واتو ورووود . فالشخص الذى فى الوسط هو أول ما يسترعى النظر . وما من إنسان يشك فى أنه (يوستاك سنت بيير) . إنه يحنى رأسه الجليل الذى يكلله شعر أشيب طويل .

(1) الأصل فى معنى كلمة Burghers هو « نواب » ولكنى استصوبت وضع كلمة « رهائن » بدلا منها .

ليس متردداً ولا خائفا ، يتقدم بخطى ثابتة وقد أُسبلت عيناه في صلاة صامتة . وإن كان يترنح قليلا فإنما ذلك من جراء الشدائد التي عاناها أثناء الحصار الطويل . إنه هو الذي يُلهم الآخرين .

إنه أول من تقدم من الرهائن الستة الذين يتوقف على اعدامهم انقاذ أبناء بلدتهم من المذبحة المنتظرة ، وذلك حسبما شرط الغزاة .

أما المواطن الذي إلى جانبه فليس أقل منه شجاعة . ومع أنه لا يجزع لمصيره الخاص إلا ان شروط تسليم المدينة يسبب له ألماً ممضا . وفي حين يقبض بيده المفتاح الذي يتحتم عليه تسليمه للانجليز نراه يصلب كل جسمه كيما يجد من نفسه القوة على احتمال هذ الذل المحتوم . وإلى جانب هذين . وفي مستواهما ، نجد رجلا أقل شجاعة منهما لأنه يسرع في مشيته فتقول عنه : أماوقد وطن نفسه على التضحية فإنه يتوق إلى تقصير الوقت الذي بقي على استشهاده .

ومن وراء هؤلاء يأتي رهينة آخر ممسكا رأسه بيديه ومسلماً نفسه ليأس عنيف ، ربما كان يفكر في زوجه وأولاده أو في أحبائه أو فيمن سيشقى برزئه من مماته .

وثم رهينة خامس يحرك يده أمام عينيه كأنما يحاول بذلك أن يبدد كابوساً مرعباً أناخ على روحه ... إنه يتعثر ، ولا غرو فقد روّعه الموت .

وأخيراً نرى الرهينة السادس وهو أصغرهم جميعاً . تراه كأنه متردد غير مستقر ، يقبض أساريرَ وجهه همٌّ ناصب . أهو طيف حبيبته الذي يستحوذ على أفكاره ؟ ولكن رفقاءه يتقدمون وها هو ذا يتبعهم مادا عنقه كما لو كان يسلمه إلى سيف القدر .

ومع أن هؤلاء الثلاثة أقل شجاعة من الثلاثة الأول فإن نصيبهم من التقدير والإعجاب لا يقل بحال من الأحوال عنهم ، لأن إخلاصهم أدعى إلى التقدير والثناء . ويكلفهم أكثر مما يكلف الآخرين .

وهكذا يتسنى للمرءان يتابع بدقة فصلا تمثيلياً في رهائن كاليه ، ذلك التمثيل الذي هو نتاج شعور وتأثر كل فرد منهم بنفوذ يوستاك دي سنت بيير ومقدار اقتدائه به والنسج على منواله فيراهم المرء وقد أسلموا قيادهم إليه رويدا رويدا وقد قرر الواحد تلو الآخر أن يتقدم معه إلى الموت ليدفع ثمن مدينتهم .

ولا ريب أن فيما ذكرت أعظم إثبات وتعضيد لرأيك عن قيمة الحركة والناظر في الفن » فأجاب رودان :

لو لم يكن فيما تراه في عملي شيء من المغالاة لجزمت بأنك أدركت ما هدفت إليه تمام الإدراك. لقد قدرت (رهائني) كل التقدير ورتبتهم بحق تبعاً لقدار بطولتها . ولكنها أظهر هذه الحال بأجلى مظهر أبديت رغبتي التي ربما تعلمها بأن تثبت تماثيلي الواحد وراء الآخر على بلاط الميدان قبالة سراي بلدية كاليه لتكون أشبه بحلقة حية من الآلام والتضحية . لو أنها وضعت كذلك لبدت كأنها تخطو من دار البلدية إلى معسكر ادوار الثالث ، ويشعر سكان كاليه اليوم عندما يخالطونها في غدوهم ورواحهم شعوراً عميقاً بالتضامن أو الاتحاد التقليدي الذي يربطهم بأولئك الأبطال ، ولكان أثر ذلك بالغا فيما أعتقد . ولكنهم رفضوا مقترحي وأصروا على وضع التماثيل على قاعدة قبيحة بقدر ما هي غير لازمة . إنهم كانوا مخطئين ، وأنا متأكد مما أقول » . فقلت « وا أسفاه . كأنما قدر على الفنان دواما أن يجاري الأفكار السائدة . وما أسعده لو استطاع أن يحقق طرفاً من أحلامه الجميلة » .

دكتور محمد بهجت

من وحى إنجلترة(١) :

البــــانوراما

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

[البانوراما هى هضبة عالية بمدينة إكستر تشرف على السهول والأودية الممتدة حول هـذه المدينة التى تعد عروس المدن فى جنوب غربى انجلترة . وقف الشاعر عليها وأرسل الطرف بعيدا بعيدا ثم نظم هذه الأبيات] .

هذاالفضاءأمام عينكِ فانظرى   تجديه ملءَ السّمع ملءَ المنظر
إنى أذُوقُ به لذاذاتِ الهوى   وأشمُّ نفحَ عبيرِهِ المتعطّـرِ
حيثُ الربيعُ هناك فى ريْعانه   يختالُ فى البُردالنضير الأخضر
حلَّت بشاشَتُه بكل ثنيَّة   وبدتْ نضارته لـكل مصوَّر
صُورٌ جـلاها الحسن ُ فهى مُشاعة
  نهبٌ لعبّادِ الجمالِ الأطهر

* * *

قد عفتُ ثرثرةَ المدينـة فاسمعى   همس النسيم عرُّغير مُثرثر !!
وسئمتُ أكدارَ الحيـــاةِ وهاهُنا
  ماءُ الحيـــاةِ الصــفوُ لم يتكدَّرِ
وبَرِمْتُ بالأنفاس وهى حبيسةٌ   فى قلبىَ المتـأجج المتسعِّرِ
ووجدتُ أعباءَ الحيـاةِ ثقيلةً   فأردتُ أطرحها بهذا المشعَرِ !
وهناكَ فى النَّشَوات غبتُ كأننى
  سكرانُ من خمْرٍ. ولو لم أسْكَرِ
وأفقتُ والدنيا أمامى جَنَّةً   حُفَّتْ بكل محبَّبٍ ومُخَيَّرِ
والجدولُ الوسنان يخطر تحتنا   ينسلُّ مثلَ العاشِقِ المتحذِّرِ
وعلى امتداد الطَّرف ألمحُ قريةً   قد لفَّها ورَقُ الربيع بمئزر
ظَهَرتْ على الأفق البعيـــد وخلفها
  دنيـــا مغيَّبة الصُّوَى لم تَظْهَرِ
عجباً يلوحُ لناالقريبُ كواقعٍ   ووراءه غيبٌ كسرٍّ مُضْمَرِ
مَن لى (بزرقاء اليمـــامة) علَّنى
  أسْتَامُ ما خلف الستار الأكبر ؟؟

(١) من ديوان بهذا العنوان تحت الطبع

تمثلوا كلهم فى ذلك الرجل

للأستاذ أحمد عبد المجيد الغزالى

[كانت الحفلة التكريمية التى أقامها الدستوريون من أبناء دار العلوم فى دار الأوبرا الملكية بمناسبة الانعام الملكى على صاحب المعالى الوزير الأديب إبراهيم دسوقى أباظه باشا مظهراً من مظاهر الأدب الرائع تجلى فيما ألقى الخطباء وأنشد الشعراء من أفانين البلاغة العالية التى استمدت صورها من فن المادحين ، وفكرها من أخلاق الممدوح . وإنا ننشر هذه القصيدة تمثيلا لما قيل فى هذا الحفل الكريم ، ومشاركة من الرسالة فى تكريم هذا الخلق العظيم]

مجدٌ أهل على أمجادك الأُولِ   ممن نفدّيه بالأرواح والمقل
« فاروق » أكرم من يجزى على عمل
  للساهرين على الإخــلاص فى العمل
الصامتين وأيديهم محــدِّثةٌ   والعازفين عن التهريج والدجَل
الساترين على الأشواك لن يهنوا
  حتى يسير الحمى فى اليـانع الخضِل
الذاهبين مثالا فى الفناء له   حتى غدوا فى التفانى مضرب المثل
الخائضين الوغى ناراً مؤججة   فما استكانوا وما ذلوا على وجل
القاذفين بها أرواحهم شعلا
  أذكت لظاها ، فكانت أصدق الشعل
الثائرين على العدوان مجترئاً   والصامدين له فى الحادث الجلل
الصارخين وقد دوّى الحديد ضُحى
  والشُوبكِيُّونَ أشلاء على السبل(١)
الغاضبين أسـوداً فى عرينهمُ
  وقد عـوى الذئب محموماً على الحمل
أولئك الصفوةُ الأخيار أجمعهم   تمثّلوا كلهم فى «ذلك الرجل»

هو الدسوق وفى يمناه صفحته   بيضاء : تقرأ فيها سيرة البطل
يا سيدى : رتبــةُ الفاروق مفخرةٌ
  فانعم بها فى هوى « الفاروق » واحتفل
تهيبتك فـلم تهمم مبكرة   وأين همتها من قمة الجبل ؟
سعت إليــك فجال الشعر فى خلدى
  والشعر لولاك لم يخطر ولم يجـل
يا سيدى فى يدى قيثارة عجب   شدت بمجدك فى حب وفى غزل

(١) إشارة إلى حوادث الاحتلال الدامية فى بلدة « الشوبك » سنة ١٩١٩

تهز أوتارها نشوى فمن ثمل   يميل من فرط نشواه على ثمل

سكبتُ ألحانها من « خافق » قُبلاً

على يديك فكانت أعمق القبل

ألحانها من كريم الشدو ينفحه

عهــدٌ إذا حالت الأيامُ لم يحل

ياطالما صدحت فى بيتكم وشدت   وطالما كنت ترعاها فتسمع لى

أغلو بشعرىَ مزهواً فتوسع لى   صدراً لمضربهِ دنيا من الأمل

خلعتُ من حلل الأشعار أوسمة   عليه أخلد ما يعلوه من حُلل

واليوم ذاك مجالى من يزاحمنى   ومن يقول إذا «حسانُ» لم يقل

لى فى « غزالة » ناديك الذى انفسحت

أرجاؤه لكريم الشعر والجــدل

يظله منك مجدٌ دون روعته   مجدالرشيد ومجد الأعصر الأول

فمشتَ للفن ترعاه وتكلأه ..   يامجدىَ الضخمَ فى حلى ومرتحلى

وعشتَ للحق ترعى الحق واطردت

خُطاك للنيل فى منجًى من الزلل

لما تحايلت الأيام تخــدعه   ألقيتَ درساً عليها بارع الحيل

سعيتَ للهدف العالى ففزت به   ومال غيرك للدنيــا فلم تَمل

الأبد الصـــغير

للمرحوم أبى القاسم الشابى

ياقلب ! كم فيك من دنيا محجبة   كأنّها حين يبدو فجرها « إِرَم »

ياقلب ! كم فيك من كون قد اتقدت

فيــه الشموس وعاشت فوقه الأمم

ياقلب ! كم فيك من أفق تنمقه   كواكب تتجلى ثم تنعــدم

ياقلب ! كم فيك من قبر قد انطفأت

فيه الحيــاة وضجت تحته الرمم

ياقلب ! كم فيك من غاب ومن جبل

تدوى به الريح أو تسمو به القمم

ياقلب ! كم فيك من كهف قد انبجست

منه الجــداول تجرى مالها لجم

تمشى ... فتحمل غصناً مزهراً نضرا

أو وردة لم تشوه حسنها قدم

أو نحلة جرها التيار مندفعاً   إلى البحار تغنى فوقها الديم

أو طائراً ساحراً ميتاً قد انفجرت

فى مقلتيه جراحٍ جمــة ودم

ياقلب ! إنك كون مدهش عجب

إن تسأل الناس عن آفاته يجِموا

كأنك الأبد المجهول قد عجزت

عنك النهى واكفهرت حولك الظلم

ياقلب ! كم من مسرات وأخيلة   ولذة يتحــامى ظلها الألم

غنت لفجرك صوتاً حالماً فرحاً

نشوان ثم توارت وانقضى النغم

وكم رأى ليلك الأشباح هائمة   مذعورة تتهاوى حولها الرجم

ورفرف الألم الدامى بأجنحة   من اللهيب وأنّ الحزن والندم

وكم مشت فوقك الدنيا بأجمعها   حتى توارت وسار الموت والعدم

وشيدت حولك الأيام أبنية   من الأناشيد تبنى ثم تنهدم

تمضى الحياة بماضيها وحاضرهــا

وتذهب الشمس والشطآن والقمم

وأنت أنت الخضم الرحب : لا فرح

يبقى على سطحك الطاغى ولا ألم

ياقلب ! كم ذا تمليت الحياة وكم

راقصتها مرحا ما مسك السأم

وكم توشحت من ليل ومن شفق

ومن صباح توشى ذيله السُّدم

وكم نسجت من الأحلام أردية   قد مزقتها الليالى وهى تبتسم

وكم ضفرت أكاليــلاً موردة

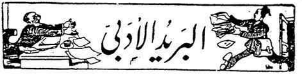
طارت بها زعزع تدوى وتحتدم

وكم رسمت رسوماً لا تشابهها   هذى العوالم والأحلام والنظم

كأنها ظلل الفردوس حافلة   بالحور ثم تلاشت واختفى الحلم

تبلو الحــياة فتبليها وتخلعها   وتستجد حياة ملها قدم

وأنت أنت : شباب خالد نضر   مثل الطبيعة . لاشيب ولاهرم



الماضى الخالد

سيدى الأستاذ الجليل عباس محمود العقاد

اطلعت أخيراً على أحد المنشورات البريطانية عن تاريخ اهتمام الإنكليز بالعرب واللغة العربية ، وقد جاء فى ذلك المنشور ما يأتى :

« من بين أولئك الذين تأثروا تأثراً عميقاً بالعلوم العربية الفيلسوف العظيم « بيكون » . ومما يستحق الذكر أن أول كتاب طبع فى انكلترا ، وهو كتاب كلمات الفلاسفة وحكمهم كان مؤلفاً على نسق كتاب عربى اسمه « مختار الحكم ومحاسن الكلم » الذى ألفه عام ألف وثلاثمائة وخمسين بعد الهجرة « الأمير المصرى مبشر بن فاتك » ، ولم يطبع النص العربى لهذا الكتاب ، ولكن له نسخة مخطوطة فى هولاندا ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى معظم اللغات الأوربية ، وقد كان فى وقت من الأوقات صاحب شهرة عظيمة فى الشرق » .

فهل قرأت يا سيدى العزيز هذا الكتاب فى الإنجليزية ؟ وإذا كان الأمر كذلك فما رسالته ؟ وكيف انتقلت النسخة المخطوطة إلى هولاندا ؟ وفى أى عصر كان هذا الانتقال ؟ وإذا كان « بيكون » قد تأثر بهذا الكتاب فما مبلغ تأثره وما نتيجة ذلك ؟ وإذا كان هذا الكتاب قد ترجم إلى معظم اللغات الأوربية فأين النص العربى الآن ؟

ومتى نعرف أن Sir William Jones « سير وليم جونس » ترجم المعلقات السبع ، وأن Hindley « هندلى » ترجم المتنبى ، وأن George Sale « جورج سيل » ترجم القرآن الكريم ، وأن Pococke « بوكوك » ترجم لامية الطغرائى ومختصر الدول ، وأن Ockley « أوكلى » ترجم رسالة حى بن يقظان لابن طفيل ؟ !

وإلى متى نظل فى مهاتراتنا حول قضية القديم والحديث ، وهذا عالم إنجليزى لا يحضرنى اسمه يقول لابن أخيه : « إننى وقائدى ودليلى العقل قد تعلمت شيئاً من أساتذتى العرب ، ولكنك يابنى قد تعلمت شيئاً مختلفاً عنه ، فلقد بهرتك مظاهر السلطة فوضعت فى رأسك لجاماً تقاد به ، وكما أن الحيوانات تقاد من مقودها حيث يشاء الإنسان دون أن تدرى لِمَ تُقاد وإلى أين .. كذلك كثير منكم يرسف فى أغلال البساطة ولا يدرى أين يُذهب به » وأقول إن أولئك الذين يعرفون ما كتبه العرب يدركون لأول وهلة مصادر الدرس الذى تعلمه هذا الفيلسوف ، وأن أولئك الذين تعلموا علوم العرب ودرسوا لغتهم ليدركون كل الإدراك معنى هذا الدرس

ومن يكُ ذا فم مرّ مريض   يجد مرًّا به الماء الزلالا

وإن فى هذا لبلاغاً لقوم يعقلون .

عبد القادر محمود

هل الموسيقى لغة ؟

حاول الأديب سهيل إدريس تفنيد بعض آراء الأستاذ على الطنطاوى عن الموسيقى فأعوزه التوفيق فى إيضاح ما تعرض له إيضاحاً علمياً . وأمامى الآن كتاب صغير عن تأريخ الموسيقى وضعه الأستاذ و . ج . تيرنر فى سنة ١٩٣٠ وفرغت أنا والفنان شكيب من نقله إلى العربية فى خلال السنة الماضية . ففى الفصل الأول من هذا الكتاب تعرض المؤلف للبرهنة على أن الموسيقى لغة ، وأود أن أجمل فيما يلى بعض ما ذكره ، وهى كفيلة بوضع الأمور فى نصابها .

ما هى الموسيقى ؟ قال البعض : إنها الفن الذى يؤلف بين أصوات مطربة . وظاهر أن هذا التعريف لا يشمل أصول الموسيقى الروحية أو الذهنية ، إلى غير ذلك من مختلف التعاريف التى ينقصها الشمول والتحديد والتى لا ترتفع لمستوى ذلك التعريف الذى وضعه بتهوفن معرفاً به الموسيقى ، إذ قال : « إن الموسيقى هى الحلقة التى تربط حياة الحس بحياة الروح » - أى الحياة الباطنة بالحياة الظاهرة . والواقع أن الموسيقى لغة يمكن أن تعبر عما يخالج النفس الإنسانية من شعور - سواء أكان حسياً بسيطاً أم روحياً مركباً .

ومثل الموسيقى مثل بقية الفنون فى قدرتها على التقليد والمحاكاة - فكما أن الشاعر قادر على محاكاة الأشياء كالكر والفر فى ميدان المعركة بترتيبه للألفاظ ترتيباً فنياً خالصاً ، كذلك

الموسيقى فإنه قادر على الوصف قدرة لا حد لها - إما بالمحاكاة المباشرة أو عن طريق التداعى ، وذلك بالنغم .

والنغم هو أداة الموسيقى كما أن اللفظ هو أداة الأديب واللون أداة الرسم . ويرتبط اللون واللفظ بأشياء خارجية تسبب تداعى مختلف المعانى ، ويرجع هذا لأثر البيئة . فإذا كتب كاتب : « شجرة » فإن القارئ قد يتصور نخلة تمر أو شجرة بلوط أو ما شاكل ذلك ، وإذا حاول رسام أن يخرج للحياة فكره وشعوره الباطنى عن طريق اللون فإن الرسم قد يُخرج مختلف الصور الذهنية عند مختلف الأفراد . هذه هى المعضلة الأساسية التى تقابل المترجم والرسام : عليه أن يتخير اللفظ واللون ليخرج صورة حية ثمينة بالخلود ، ولا يتأتى هذا إلا للعبقرى .

أما الموسيقى فهى خلو من هذه الصعوبات ؛ لأن النغم واحد عند الجميع ، إذ هو مستمد من الروح الإنسانية ، أو بعبارة أخرى ؛ لأنه غير مرتبط بعوامل خارجية . والموسيقى قبل هذا كله لا ترتبط بالعالم الظاهر فيما عدا تقليدها المباشر لعدد قليل من الأصوات الطبيعية التى تخلقها الطبيعة ، مع ملاحظة أن الأصوات جد نادرة فى الطبيعة وأن عالمنا الذى نعيش فيه عالم صامت إلى أبعد الحدود ، ويمكن التدليل على صحة هذا بأن يتخيل القارئ أنه يعيش وحيداً فى الريف أو فى الصحراء بعيداً عن الناس وعن ضوضاء المدينة ، حيث السكون شامل مطلق .

يتساوى هذا السكون فى نظر الأفراد فى مختلف بقاع الأرض لأنه غير مرتبط بماديات الحياة . هذا السكون هو الذى وهب الموسيقى ذاتيتها الفريدة ، فتعبير الموسيقى عن فكره وشعوره عن طريق النغم مستمد من صميم العالم الباطن للروح الإنسانية ، وهى بهذا وطدت عالميتها وإنسانيتها .

والموسيقى كلغة لا تقدر على ربط معاملات الناس التجارية ولكنها قادرة على التعبير عما يختلج فى قلوبنا من عواطف وما يمر فى عقولنا من خيالات - كل هذا بأدق وصف ، وسهولة أداء وقدرة على التعبير ، لأنها أنقى لغة تترجم عن النفس الإنسانية ولأنها تبحث فى دنيا الباطن ، وليس لها شىء فى عالم الظاهر . هى لغة لأنها تنقل للآخرين صورة حية لما يتفاعل فى نفس الموسيقى من شعور وآمال باطنة . هذه الصورة هى المظهر الخارجى الذى يفهمه الآخرون بحواسهم . فتعبيرات الموسيقى النفسية هى ألحان موضوعة فى نغم موسيقى ، والنفس الإنسانية واحدة فى الجوهر وإن اختلفت فى المظهر ، وعلى هذا فالتعبيرات الموسيقية واحدة تنبع كلها من نبع واحد هو النفس الإنسانية وإن اختلفت فى الشكل الخارجى .

هذا مجمل لرأى الأستاذ تبرتر فى هذا الموضوع .

محمد التونى

المدرس بالمعهد البريطاني للعلوم التجارية

مؤتمر إصلاح الأسرة

قررت الجمعية العمومية لرابطة إصلاح الأسرة فى اجتماعها السنوى برياسة سعادة محمد على علوبة باشا الدعوة إلى عقد مؤتمر عام لبحث شئون الأسرة يدعى إليه رجال الدين والاجتماع والتربية والمشتغلون بالأبحاث الاجتماعية فى مصر والأقطار الشقيقة ، وقد شكلت لجنة لتنظيم المؤتمر من حضرات أصحاب العزة :

محمد فتحى بك ، عبد الحميد بك عبد الحق ، جلال حسين بك ، حسن بك فريد ، صالح جودت بك ، أحمد محمد بك ، الدكتور محمد صالح حلمى بك ، الدكتورة فاطمة فهمى ، الأستاذة زينب لبيب المحامية

وتطلب البيانات الخاصة بهذا المؤتمر من سكرتارية الرابطة ٦ شارع محمد صدقى باشا بميدان الفلكى بمصر .

اسماعيل توفيق



ناظرة المدرسة

لأنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ محمد قطب

فى منتصف الساعة التاسعة خرجت العربة من المدينة . وكان الطريق الجبلى جافاً وشمس أبريل الضاحية المشرقة تنشر الدفء والبهجة وإن كان الجليد ما زال باقياً فى الحفر وفى ثنايا الغابات ، فقد انتهى الشتاء المظلم الطويل ولما يكد ، وطلع الربيع فجأة على غير انتظار . ولكن الدفء الجميل ومنظر الغابات الشفافة التى أنعشتها نسمات الربيع الدافئة ، والطيور المحلقة فى جماعات كبيرة فوق المستنقعات العظيمة التى تبدو كالبحيرات ، والسماء الصافية الرائقة التى تبعث الرغبة فى الإنطلاق ، ويخيل للانسان أن يرتقى إليها صعدا فيوغل فى أرجائها الفسيحة ... كل أولئك لم يكن ليبعث معنًى واحداً جديداً فى نفس « ماريا فاسيليفنا » التى كانت تجلس فى العربة . فهى ناظرة مدرسة منذ ثلاث عشرة سنة ، ولا يستطيع أحد أن يحصى عدد المرات التى ذهبت فيها إلى المدينة لتقبض راتبها . وسواء كان الوقت ربيعاً كما هو الحال اليوم ، أو كان يوم خريف ممطر أو شتاء مظلم ، فلا فرق لديها أبداً . وهو إحساس واحد يختلج فى نفسها كل مرة : هو التطلع إلى إنهاء هذه الرحلة بأسرع ما يكون .

وخيل إليها أنها تعيش فى هذا المكان منذ أجيال طويلة وآماد بعيدة ، وخيل إليها أنها تعرف كل صخرة وكل شجرة فى الطريق من المدينة إلى المدرسة ، لقد كان هنا ماضيها وحاضرها . ولا تستطيع أن تتخيل لها مستقبلا آخر غير المدرسة والطريق إلى المدينة والعودة إلى المدرسة وهكذا ... إلى ما شاء الله .

وقد أقلعت عن التفكير فى ماضى حياتها قبل أن تصبح ناظرة مدرسة بل كادت تنساه ... لقد كان لها — ذات يوم — والد ووالدة وكانا يسكنان فى موسكوفى منزل فخم . ولكن لم يبق فى ذاكرتها من هذا كله إلا أشياء غامضة باهتة كطائف الأحلام فقد مات أبوها وهى فى العاشرة من عمرها وماتت أمها على أثره . وكان لها أخ ضابط فى الجيش وكانا يتراسلان بين الحين والحين ، ولكن أخاها قطع عنها مراسلاته ولم تعد تعلم عنه شيئاً . ولم يبق لها ما يربطها بالماضى البعيد إلا صورة لأمها ... وحتى هذه قد بهتت معالمها من أثر الرطوبة فى المدرسة ولم يبق منها إلا شعر الرأس والحاجبان .

كانت ماريا — فى أثناء الطريق — تفكر فى مدرستها وفى الامتحان الذى سيقع فى القريب وفى البنت والأولاد الأربعة الذين سترسلهم إليه . وبينما هى مسترسلة فى أفكار الامتحان أدركها أحد الجيران من كبار الملاك — رجل يدعى هانوف — فى عربة يجرها أربعة جياد وكان هو بعينه الرجل الذى امتحن تلاميذها فى العام الفائت . فلما رآها عرفها وانحنى لها محيياً وهو يقول : « صباح الخير . أنت عائدة إلى المدرسة فيما أظن »

كان هانوف هذا فى الأربعين من عمره ؛ رجلا بارد العاطفة يبدو فى وجهه أثر الإجهاد ، وكان الهرم قد بدأ يدب إليه ولكنه مع ذلك وسيم محبوب من النساء .

وكان يعيش فى منزله الكبير بمفرده — ولم يكن موظفاً — وكان الناس يقولون عنه إنه لا يصنع شيئاً فى المنزل إلا أن يروح ويجيء فى الغرفة وهو يصفر بفمه أو يلعب الشطرنج مع سائق عربته ويقولون كذلك إنه مدمن للشراب ، وهذا حق ، فقد كانت الأوراق التى أحضرها معه فى الامتحان تفوح برائحة الخمور ... وقد كان فى ذلك اليوم مرتدياً ملابسه الجديدة وبدا فى عينى ماريا وجيهاً جذاباً ، وكانت طوال جلستها إلى جانبه فى غمرة من الانفعالات والأحاسيس . لقد تعودت أن ترى ممتحنين غلاظاً جفاة ، وآخرين معقولين معتدلين ، ولكن هذا كان نموذجاً فريداً فلم يكن يدرى فى أى موضوع يسأل ! ولم يكن يعطى التلاميذ أقل من الدرجة النهائية !

قال موجها كلامه إلى ماريا فاسيليفنا : « إننى ذاهب لزيارة باكفست ولكنى أخبرت أنه ليس فى المنزل »

ثم انحرفوا عن الطريق الصاعد فى الجبل إلى طريق جانبى يؤدى إلى القرية ، وكان هانوف فى المقدمة يليه سيميون . وكانت الجياد الأربعة تتحول بسرعة ضئيلة وهى تجر وراءها العربة الثقيلة وسط الأوحال ، أما سيميون فقد كان يتأرجح من جانب إلى جانب فى الطريق وكثيراً ما كان ينزل من العربة ليساعد حصانه الهزيل

وكانت ماريا فاسيلفينا ما تزال تفكر فى المدرسة وفيما إذا كانت أسئلة الحساب ستأتى مناسبة لمستوى التلاميذ أو صعبة على أفهامهم .

وأحست فى هذه اللحظة بالغضب والاستياء من رجال المنطقة الذين لم تجد أحداً منهم فى اليوم الفائت . ما أبعدهم عن الشعور بمسئولية العمل ! لقد مر عامان وهى تطلب تغيير البواب الذى لا يقوم بأداء عمل ما ويعاملها معاملة خشنة ويضرب التلاميذ ؛ ولكن أحداً لم يعرها التفاتاً . وكان من المتعذر عليها أن تجد حضرة المراقب فى مكتبه ، فإذا وجدته بعد لأى أجابها والدموع فى عينيه إنه لا يجد لحظة فراغ واحدة يبحث فيها الطلب !

أما المفتش فهو يزور المدرسة مرة كل ثلاثة أعوام ! ولم يكن يعرف عن طبيعة عمله شيئاً . فقد كان موظفاً فى مصلحة الضرائب وحصل على وظيفة التفتيش بطريق الوساطة والاستثناء !

وكان راعى المدرسة مزارعا يكاد يكون أمياً ، وكانت به جلافة وضيق عقل ، وكان صديقاً حميما للبواب يحميه من كل سوء .

فلمن تتقدم بشكواها وقد أوصدت أمامها الأبواب ؟

قالت لنفسها وهى تنظر إلى هانوف « إنه حقيقة وسيم »

وزاد الطريق سوءا . وكانت العجلات تغرق فى الماء وتثير رشاشاً حاداً يضربهم فى وجوههم . فقال هانوف وهو يضحك : « يا له من طريق ! » .

وتأملته الناظرة حيناً فلم تستطع أن تدرك لماذا يعيش هذا الرجل العجيب هنا . وكيف يتناسب جاهه ووسامته وأبهة منظره مع هذا المكان المظلم القاتم الغارق فى الطين ؟ ليست له أية مصلحة فى الحياة هنا ، وها هو ذا يقود جياده فى ذلك الطريق المتعب كما يفعل سيميون ويلاقى ما يلاقيه هذا من نصب وعنت ... لماذا يبقى الإنسان هنا ما دام يستطيع أن يعيش فى بطرسبورج أو فى مدن القارة الكبرى ؟

لقد كان من الواضح أن هانوف لم يكن يحس وطأة هذه الحياة أو يرغب فى أحسن منها . لقد كان عطوفاً ، لينا ، ساذجاً ، لا يدرك غلظة هذه الحياة ؛ كما كان – أثناء الإمتحان – لا يعرف موضوعات الإمتحان .

وأيقظها سيميون من تفكيرها حين صاح بها « أمسكى بالعربة جيدا » فقد قفزت العربة فجأة وكادت تنقلب وأحست ماريا بشىء ثقيل يقع على قدميها فإذا هو حقيبتها وبداخلها ما ابتاعته من المدينة فى الصباح . كان الطريق يصعد رأسياً فى الجبل والأوحال تغطيه من كل جانب وكانت الخيل المجهدة تلهث من التعب فنزل هانوف وسار بجانب العربة وهو يمسح عرقه قائلا « ياله من طريق ! » وضحك مرة أخرى وهو يقول . « إنه كفيل بأن يحطم العربة »

فرد سيميون بلهجة أدنى إلى التوجع « لا أحد يضطرك إلى الركوب فى يوم كهذا . كان الأجدر بك أن تبقى فى المنزل »

فقال « إننى أضيق بالمنزل ياجدى ولا أحب البقاء فيه »

وكان يبدو بجانب سيميون العجوز رشيقاً متوفزا ومع ذلك فقد كان فى مشيته شىء خفى يكشف عن بنيان بدأ يدب فيه الضعف والانحلال . وأحست ماريا بشعور يملؤها بالخوف والعطف على هذا الرجل الذى يسير فى طريقه إلى الانحلال لغير ما سبب مفهوم . وخيل إليها أن لو كانت هى زوجته أو أخته لجعلت حياتها كلها وقفاً على إنقاذه مما هو فيه . زوجته ! لقد شاءت الظروف أن تجعله يعيش فى بيته الفسيح منفردا وتعيش هى فى هذه القرية اللعينة بمفردها ومع ذلك فإن مجرد التفكير فى أن يكون كلاهما بجوار الآخر مساوياً له يبدو أمراً مستحيل الوقوع .

فى الحق إن ظروف الحياة وملابسات بنى الإنسان قد ركبت تركيباً عجيبا يقف الإنسان أمامه حائراً عاجزاً عن تفهمه فإذا لم يجد له حيلة عاد مثقل الفؤاد .

قالت لنفسها وهى تفكر فى ذلك « إنه لمن أخفى الأمور وأصعبها فهما أن يعطى الله هذا الجمال وهذه الرشاقة وتلك العيون الحزينة الجميلة لقوم ضعفاء تعست حظوظهم فلا يصلحون لشىء لماذا ... لماذا يجعل الله فيهم كل تلك الفتنة الجذابة ؟ »

قال لها هانوف وهو يستقل العربة « هنا يجب أن أنحرف إلى

الشرق . وداعا ! أرجو لك كل شيء حسن !»

وعادت تفكر فى التلاميذ وفى الامتحان وفى البواب وحين نقلت الريح إلى سمعها صوت العجلات المبتعدة اختلطت أفكارها تلك بأفكار أخرى . وأحست بالشوق الجارف إلى التفكير فى العينين الجميلتين ، وفى الحب ، وفى السعادة التى لن تكون ... زوجته ؟

لقد كانت تحيا حياة قاسية . الجو بارد فى الصباح ، ولا أحد يوقد الموقد ، وقد اختفى البواب ، والتلاميذ يتوافدون بمجرد ظهور الضوء يحملون قطعاً من الثلج والطين ويتصايحون فى ضجة عظيمة . كل شيء متعب مقلق للأعصاب . وكان مسكنها يتكون من غرفة واحدة صغيرة يتبعها المطبخ . وكانت تشعر بالصداع بعد انتهاء العمل ويصيبها الإلتهاب بعد كل أكلة . وكان عليها أن تجمع النقود من الأطفال للخشب وللبواب وأن تعطيها لراعى المدرسة ثم ترجوه — وهو ذلك الفلاح الفظ الغليظ — أن يرسل إليها الخشب . وفى الليل كانت تحلم بالامتحانات والفلاحين والعواصف الثلجية ... ما أقسى هذه الحياة التى تسرع بها إلى الهرم وتجعلها تبدو قبيحة محدودبة ثقيلة كأنما خلقت من رصاص .

لقد كانت أبدا خائفة قلقة . وكانت تنتفض واقفة ولا تجسر على الجلوس فى حضرة أحد موظفى المراقبة أو راعى المدرسة . وتستعمل العبارات الرسمية والتحيات المبجلة فى حديثها معهم .

ولم يكن أحد يظنها جذابة . وكانت حياتها تمر جافة مزعجة بغير عاطفة حية ولا إحساس صداقة ولا معارف يشاركونها بعض هموم الحياة .

يا أعجب حياتها لو وقعت فى الحب وهى فى حالتها تلك !

« أمسكى جيداً ياماريا ! »

مصعد آخر فى الجبل .

لقد أصبحت ماريا ناظرة تحت ضغط الضرورة . ولم تكن تشعر بأى ميل لهذه المهنة . ولم تتجه قط إلى مهنة بعينها ولا كانت تفكر فى خدمة ذلك الغرض النبيل : غرض التعليم والتثقيف . وكان يخيل إليها دائماً أن المهم فى الأمر كله ليس هو التلاميذ ولا التعليم وإنما هو الامتحان .

ومن أين لها الوقت لتفكر فى شرف المهنة وفى خدمة الثقافة ؟

إن المدرسين والأطباء ، مثال الأجور ، بما يرزحون تحته من أعباء مرهقة عنيفة ، لا يجدون ما يخفف عنهم ، ولا حتى الاعتقاد بأنهم يخدمون فكرة عليا أو يخدمون الناس ، ما دامت رءوسهم دائماً مشغولة بالتفكير فى أمر القوت اليومى وفى المرض وفى سوء حالة المواصلات ...

إنها حياة شاقة مملة ، لا يستطيع احتمالها طويلا إلا « حمير الشغل » من أمثال ماريا فاسيليفنا . أما أولئك المتوفزون الذين تتدفق الحياة فى جنوبهم والذين يحدثون عن شرف المهنة وعن خدمة الأغراض النبيلة فسرعان ما يدركهم الملل من التدريس فينفضون أيديهم منه .

كان سيميون يجعل باله دائماً إلى اختيار أخصر الطرق وأكثرها استقامة ولكنه كان يجد العراقيل دائماً فى الطريق ، فهنا أحد الفلاحين لا يسمح له بالمرور ، وهناك أرض القسيس لا يخترقها أحد ، وفى جهة ثالثة قد اشترى بعضهم قطعة أرض وحفر حولها حفرة فلا سبيل إلى عبورها ، وهكذا كان يضطر بين الحين والحين إلى تغيير طريقه ووجهته .

ومروا فى أثناء الطريق على قرية « نيز هناى جورود يتشى » فقال سيميون « لقد كانوا يبنون مدرسة هنا أخيراً . وكان هذا عملا سيئاً جداً ! »

فقالت ماريا باستغراب « لماذا ؟ »

« يقولون إن المراقب أخذ ألف جنيه فى جيبه وأخذ راعى المدرسة ألفاً أخرى وأخذ المدرس خمسمائة »

« لقد تكلفت المدرسة كلها ألف جنيه . فمن الخطأ يا جدى أن تفترى على الناس مثل هذه الأكاذيب »

لا أدرى ... وإنما أخبرتك بما سمعت من الناس »

ولكن كان من الواضح أن سيميون لم يصدق الناظرة . ولم يكن الفلاحون يصدقونها كذلك . فقد كانوا يعتقدون أنها تأخذ راتباً ضخما : عشرين روبل (وكان يكفيها خمسة) وأنها كانت تأخذ لنفسها معظم المال الذى تجمعه من التلاميذ باسم الخشب وباسم البواب ، وكان راعى المدرسة يعتقد ذلك أيضاً ، وكان هو بدوره يجعل لنفسه ربحاً من المال المجموع للخشب ، وكان يأخذ

هبات من الفلاحين بصفه كونه راعى المدرسة بدون علم السلطات المختصة ..

وأخيراً خرجوا من الغابة إلى الطريق المستوى الذى يؤدى إلى فيازوفيا ، وكان عليهم أن يعبروا النهر ثم خط السكة الحديد فيصبحوا على مرأى البصر من فيازوفيا .

قالت ماريا « إلى أين أنت ذاهب ياسيميون ؟ خذ الطريق الأيمن إلى الجسر »

« نستطيع أن نذهب من هذا الطريق أيضاً . وليس النهر عميقاً هنا » ، « واحذر أن تغرق الحصان »

« ماذا ؟ » فقالت : ماريا وقد رأت الجياد الأربعة عن بعد :

« انظر إن هانوف فى طريقه إلى الجسر . إنه هو ، أليس كذلك ؟ »

« نعم : فهو إذن لم يجد با كفست فى منزله . ألا ما أغباه ! لأى شىء قاد عربته إلى هناك وكان يستطيع أن يجىء من هنا فيوفر على نفسه ميلين كاملين »

ثم وصلوا إلى النهر . وهذا النهر يصبح فى الصيف جدولا صغيراً يسهل عبوره ويجف عادة فى شهر أغسطس ، أما الآن بعد ذوبان الثلوج فإن عرضه يصل إلى أربعين قدماً وهو سريع الجريان كثير الوحل بارد المياه

صاح سيميون فى حصانه وهو يجذب اللجام بحدة وعنف « هيا ! أسرع ! » فنزل الحصان فى الماء حتى بطنه ثم وقف ؛ ولكنه مالبث أن تحرك بجهد عظيم ، وأحست ماريا بالصقيع فى قدميها فصاحت هى الأخرى « أسرع ! أسرع ! » .

وحين وصلوا إلى الضفة الأخرى كان حذاؤها قد امتلأ بالماء وابتل أسفل ردائها وأخذ أحد أكمامها يقطر ماء . واختلط الماء بالسكر وبالدقيق اللذين اشترتهما من المدينة ، وكان هذا فوق ما تطيقه ماريا ولكنها لم تجد لها حيلة إلا أن تشبك أصابع يديها فى يأس وتصيح «إنك متعب ، متعب ياسيميون . كم أنت متعب !»

وكان الحاجز الذى يغلق الممر قد أنزل قبل أن يجىء القطار من المحطة فوقفت ماريا تنتظر مروره وجسمها كله يرتعد من البرد . وكان أمامها على مدى النظر قرية فيازوفيا والمدرسة بسقفها الأخضر والكنيسة بصلبانها اللامعة فى ضوء الشمس الغاربة

وكانت نوافذ المحطة تلمع كذلك فى الضوء والدخان الأسود يرتفع من مدخنة القاطرة ... وخيل إليها أن كل شىء يرتعد من البرد !

وأخيراً جاء القطار . وكانت نوافذه تعكس النور فى عينيها فتعشيهما . وبينما هى تحدق فى العربات السائرة أمامها على مهل أبصرت بين عربتين من عربات الدرجة الأولى سيدة واقفة فتأملتها ومى تمر بها . ياللعجب ! أمها ! ما أشبهها بها ! لقد كان لأمها مثل هذا الشعر الفخم ومثل هذين الحاجبين وكانت ثنيات وجهها تشبه هذا الوجه إلى حد كبير .

ولأول مرة منذ ثلاثة عشر عاما برزت أمام مخيلتها بوضوح عجيب ودقة تامة صورة أمها ، وأبيها وأخيها ، ومنزلهم فى موسكو وكل شىء من الماضى بتفاصيله الدقيقة . وسمعت من أعماق ذلك الماضى نغمات البيانو تنبعث فى الفضاء وصوت أبيها يناديها وأحست — كما كانت تحس إذ ذاك — أنها شابة جميلة ، رشيقة ، وخيل إليها أنها جالسة فى غرفتها الدافئة على كرسى وثير وحولها أقاربها وغمرها شعور مفاجئ بالبشر والسعادة فغمرت خديها بيدها فى نشوة عارمة ونادت هامسة فى ضراعة « أماه ! »

وطفقت تبكى . لا تدرى لم ؟ وفى تلك اللحظة ذاتها وصل هانوف بعربته وجياده الاربعة . وما أن رأته حتى أحست بالسعادة كما لم تحس من قبل أبدا . وابتسمت وهزت رأسها محيية له باعتباره صديقاً ونداً لها . وخيل إليها أن سعادتها بانتصارها يملأ الفضاء من كل جانب ويلمع فى النوافذ وفى الأشجار وعلى أوراق الزهور ! وأن أباها وأمها لم يموتا أبدا وأنها لم تكن قط ناظرة مدرسة . وأن هذا كله كان حلماً مزعجاً طويلا أفاقت منه هذه اللحظة

« اركبى يا ماريا ! »

وفجأة انتهى كل شىء . ورفع الحاجز ببطء وصعدت ماريا إلى العربة وهى ترتعش من الصقيع . وعبرت العربة ذات الجياد الأربعة خط السكة الحديد وتلاها سيميون . ورفع عامل الإشارة قبعته محيياً » . «ها هى فيازوفيا . وها نحن أولاء . »

محمد قطب